

ندرة البطولة

كتب العالم الفاضل الأستاذ أحمد أمين بك مقالا في الرسالة ذهب فيه إلى أن البطولة قد ندرت في العصر الحديث ، فلا تجد في الشعر أمثال بشار وأبي نواس وابن الرومي ، ولا في النثر أمثال ابن المقفع والجاحظ وسهل بن هرون ، ولا في السياسة أمثال عمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز ، ولا في الغناء أمثال إسحق الموصلي وإبراهيم بن المهدي ، وعلى ذلك على الأجمال بانتشار التعليم وكثرة المتوسطين بين الناس .

وقد ناقشه صاحب الكتاب بالمقال الأول من المقالين التاليين فنادى الأستاذ قائلا : « إن كثرة العلماء والفنانين في عصرنا الحاضر حجة لي لا على » ؛ وهى السبب في أننا لانعدهم نابغين ولا أبطالاً إلى أن قال : « فعصرنا الحاضر طابعه المألوف والمعتاد لا طابع النابغة والبطل ، وإن كان فنا ومعتادنا أرق من نابغة القرون الماضية وبطل القرون الماضية » وفي المقالين التاليين بيان لوجهة النظر الأخرى في هذا الموضوع :

— ١ —

العالم الفاضل الأستاذ أحمد أمين يروى ما يتحدث به فريق من المتشائمين حين ينعون على العصر الحديث ندرة البطولة وقلة النبوغ ويسأل معهم : « هل تجد في الشعر أمثال بشار وأبي نواس وابن الرومي وابن المعتز وأبي العلاء ؟ وهل تجد في النثر أمثال ابن المقفع والجاحظ وسهل بن هرون وعمر بن مسعدة ! ! وهل تجد في الغناء أمثال إسحق الموصلي وإبراهيم بن المهدي » وقس على ذلك بطولة الحرب والسياسة والزعامة وسائر البطولات .

ثم يعقب الأستاذ على ذلك قائلا : « يظهر لي مع الأسف أن الظاهرة صحيحة ، وأن الجيل الحاضر في الأمم المختلفة لا يلد كثيراً من النوابغ ، ولا ينتج كثيراً من الأبطال ، وأن طابع هذه العصور هو طابع المألوف والمعتاد ، لا طابع النابغة والبطل » ثم يستعرض الأسباب ويختتمها بقوله : « ما أحق هذا الموضوع بالدرس وتناول الكتاب له من وجوهه المختلفة » والموضوع كما قال الأستاذ النابه حقيق بالدرس

والتناول من وجوه مختلفة ، وليس له آوان يفوت بفواته . فإذا شغلتنا موضوعات أخرى عن تناوله في الأيام الماضية فليس ما يمنع اليوم أن نبدي الرأي فيه .

رأينا أننا نخالف الأستاذ مخالفة النقيض للنقيض ، ونعتقد أن العصر الحديث أغنى بالبطولة والنبوغ من كل عصر سلف بغير استثناء ولا تحفظ ولا تغليب للظن والاحتمال . وإنه ليس أسهل ولا أقرب من ظهور خطأ المتشائمين فيما وصلوا إليه من نتيجة ، لأنه ليس أسهل ولا أقرب من ظهور الخطأ فيما اعتمدوه من قياس . إن الوجه في المقارنة بين جيل وجيل أن نحصر الزمن وأن نحصر المزايا ، وأن نحصر العناصر التي تقوم عليها شهرة الأدباء أو الأجيال .

وهذا الذي ينسأه المفاضلون بين عصرنا الحديث والعصور الغابرة كل النسيان . فمن أمثلة ذلك : « هل تجد في الشعر أمثال بشار وأبي نواس وابن الرومي وابن المعتز وأبي العلاء ؟ » .

فالذين يسألون هذا السؤال يحسبون الماضي كله عصرًا واحدًا يقابله عصر واحد من الحاضر هو العصر الذي نعيش فيه ... وينسون أن الزمن الذي نشأ فيه بشار والمعري يمتد من أواسط القرن الثامن للهجرة إلى أواسط القرن الخامس أي نحو ثلثمائة سنة . وينسون أن المكان الذي نشأوا فيه يمتد من العراق إلى الشام ، ومن الحضر إلى البادية .

وينسون أن العصر الحاضر الذي نعيش فيه لا يمتد إلى أكثر من أربعين أو خمسين سنة وهو الزمن الذي يبدأ بفتوة الشاعر وينتهي بوفاة . وإنما الوجه أن يحضروا أربعين أو خمسين سنة من العصور القديمة ، ثم يعقدوا المقارنة بين هاتين الفترتين ، فأنهم ليدركون إذن حقيقة التفاوت بين عصرنا الحاضر وبين كل عصر من تلك العصور .

كذلك ينسى النعاة على المحدثين أن يسألوا أنفسهم : ما هي المزية التي كان بها النابغ القديم « أنبغ » من قرينه الحديث ؟ فلا يسألون مثلاً : ما هو كتاب الجاحظ

الذى يستعجزون أبناء عصرنا عن الإتيان بنظيره ؟ فإن لم يكن كتاب فما هو الموضوع ، وإن لم يكن موضوع فما هو المقال أو الجملة أو العبارة ! ولو كلّفوا أنفسهم سؤالاً كهذا لمالت معهم كفة الميزان وعلموا أن الجاحظ ومن هم أكبر من الجاحظ يحتاجون إلى أن يتعلموا على أناس من المتخلفين ، وقلماء يعتزون بمزية واحدة لا يهد لها نظير من مزايا المتأخرين .

وأعجب من ذلك حديثهم عن الموصلى وإبراهيم بن المهدي ومن جرى مجراها من المطربين في العصور الأولى ، فإذا سمعوا من هذا أو ذاك ؟ ومن أين لهم أن الموصلى يبلغ شأواً سلامه حجازي أو السيد درويش أو أم كلثوم فضلاً عن السبق الذي لا يجارى والبون الذي لا يدرك ؟

أما أنا فأغلب الظن عندي أن الأمر معكوس ، وأن ألحان الموصلى لا تعدو أن تكون مزيجاً من تنعيم البدو وصيغة الحضارة المستمارة والآلات الناقصة ، وكل ما يأتى على هذا الخط معروف الأصول معروف النطاق ، وإن يكن معروفاً بحروف النوبة وأصوات السماع .

كذلك ينسى المتشائمون أن يتقصوا عناصر الشهرة في العصور القديمة قبل أن يعقدوا المقارنة بينها وبين نظائرها في العصور الحديثة .

فدع أنهم ينسون أن يرجعوا إلى وقائع قائم مثل يوليوس قيصر أو الإسكندر المقدوني أو چنكيز خان قبل أن يرجحوهم في فنون الحرب على فوش وهندنبرج ومصطفى كمال ، ولو أنهم رجعوا إلى تلك الوقائع لما أكبروا من شأن الانتصار فيها كل ذلك الإكبار . ودع أنهم ينسون أن كل حرب لا بد فيها من ظافر ومن مهزوم ، وأن الظفر وحده ليس بشيء إن لم ننظر معه إلى عوامله ودواعيه ونتبين أنها صالحة للتكرار في كل وقعة وكل حين .

ودع أنهم ينسون أحكام المصادقات والعوارض وأنها تندرج في الزمن الحديث وتكثر في الزمن القديم .

دع هذا جميعه فقد يكون في نسيانه بعض أعذار لمن ينسون ، ولكن كيف تراهم يجارون الأقدمين في مبالغاتهم عن هؤلاء العظماء ، وهي قائمة على دعاوى وأكاذيب نحن على يقين من بطلانها كل البطلان ؟ ألم يكن هؤلاء العظماء أرباباً وأنصاف أرباب وقديسين وأشباه قديسين في رأى الأقدمين ؟ فكيف نقابل بينهم وبين خلفائهم في عصرنا قبل أن نسقط في الميزان تلك المبالغات وتلك الدعاوى والأكاذيب . ان هذا خليق أن يضيف إلى فضل المتأخرين لا أن يفضى معه ويحيف عليه ، لأنهم وهم آدميون ليس إلا يوضعون في الميزان أمام أرباب وأنصاف أرباب .

ليس في تاريخ بنى الإنسان منذ بدايته إلى يومنا هذا عصر يعرض لنا من عجائب الحوادث والأمم والأفراد مثال ما يعرضه لنا العصر الذى نحن فيه .

ليس في تاريخ بنى الإنسان عصر برز فيه من البطولة والمغامرة والدهاء والقدرة والصبر على النصر والهزيمة مثل ما برز أمامنا في الحرب العظمى .

وليس في تاريخ بنى الإنسان عصر تولى فيه عروش القياصرة والخواقين والأكاسرة وقبض فيه على أعنة السلطان رجال من « أبناء الشعب » كمصطفى كمال ورضا بهلوى وستالين وموسوليني وهتلر وكابلرو وكرديناس . وماذا عندنا من الأدلة على أن العصاميين في الزمن القديم كانوا أعجب وأدنى إلى البطولة في صنيعهم من هؤلاء ؟ .

وليس في تاريخ بنى الإنسان عصر واحد عرض لنا من نخوة الحب وفروسية الماطنة مثل ما عرضه لنا العصر الحاضر في غرام ملك الإنجليز السابق وصديقه السيدة سمبسون . فماذا عندنا من الأدلة على أن غرام هيلانة في طروادة المزعوم كان أعجب وأدنى إلى البطولة من هذا الغرام ؟ وليس في تاريخ بنى الإنسان عصر واحد عرض لنا من أطوار الشعوب ما عرضته لنا الثورة الأسبانية والثورة الروسية من قبلها، وعرضته معها الثورات في مصر والهند والصين . فماذا عندنا من الأدلة على أن عصر الثورة الفرنسية أو عصور ثورات اليونان والرومان كان لها نصيب من العجب وجلائل الخطوب أوفى من هذا النصيب الذى شهدناه ؟ .

وليس في تاريخ بني الإنسان عصر أنجب في كل أمة نموذجاً يمثلها كما أنجب عصرنا سعد زغلول وغاندى وسون ياتسن وشيان كاي شيك وفيصلا وابن سعود .

وليس في تاريخ بني الإنسان عصر فيه مافى عصرنا من الحقائق التي تشبه الخيال والعبر التي تشبه نوادر الأمثال ، والشواهد التي تتعدد على كل ملاحظة من ملاحظات النفس الإنسانية والبواعث القومية والطوارق السياسية... فعندنا وعلى مسمع ومشهد منا مصداق كل رأى حام في ذهن فيلسوف ، وتطبيق كل مذهب دعا إليه داعية قديم أو حديث في عالم النظريات ، وليس في تاريخ بني الإنسان مخاطر أهول ولا أنبل من مخاطر ركاب الطائرات والمظلات والعواصم المتفجرة والسفن المدمرة التي يقع فيها الخطر كل يوم ويقع فيها الأقدام كل يوم ، ولا مبالاة بالموت ولا بالخطر كأنهما رياضة من اللهو أو لعبة من ألعاب الرهان .

فإن كنا لا نسمى ما نبصره ونسمعه عجائب وروائع ولا نحسبها معارض للبطلولة والنبوغ فقد غيرنا الاسماء وقد بدلنا اللغة ، وقد أصبحنا مطبوعين على النظر إلى البعيد دون النظر إلى القريب .

نعم إننا ننظر حولنا إلى عظيم في الشعر من طراز شكسبير فلا نرى له نداً بين الشعراء المعاصرين . ولكن النوابع من طراز شكسبير تتساوى فيهم جميع العصور ولا يستأثر بهم القرن الذي نبغوا فيه ، وهكذا كان أبناء القرن السادس عشر خلقاء أن يبحثوا في زمانهم عن يضارعون نوابع القرن العشرين في العلم والاختراع والموسيقى والفن كافة فلا يجدوا بينهم أنداداً لهم يضارعونهم كثرة وقيمة... وإن العصر الحديث مع هذا اليهم قصائد شكسبير خيراً مما فهمها معاصروه ، ويقدره خيراً مما قدروه ، ويمثل رواياته أكثر وأجمل وأبرع وأكفل بالإقبال والإعجاب مما كانوا يمثلونها في حياته .

أذكر أنني رأيت منذ سنوات في إحدى الصحف الإنجليزية صوراً لبعض العظماء الغابرين في أزياء العصر الحديث شفعتها الصحيفة بهذا السؤال : هل تعرفهم ؟ . وحق للصحيفة أن تسأل سؤالها الآن . لأن الصور التي رأيناها لأولئك العظماء

قد سلبتهم كثيراً من الهيبة وبدلت ماحولهم من هالات الفوارق والمسافات التي يوحىها اختلاف المظاهر والأزياء .

وإن حاجتنا اليوم لشديدة إلى متحف يستعرض لنا عظماء الأمس ، في أزياء اليوم ، وعظماء اليوم في أزياء الأمس ، لنعرف مقدار ما نضيفه إلى العابرين من هيبة الفوارق والمسافات ومقدار ما نسلبه المعاصرين من جراء الألفة والمقاربة .

فإن تعذر علينا أن نرسم ذلك المتحف عياناً فلنرسمه بالظن والتقدير . ولنرجع إذن إلى مقاييسنا وموازيننا نأمس مواضع الزيادة والنقصان فيها ونصلح جوانب الغلو والبخس في كفاتهما ، ونضم تصحيح الميزان في الحكم على الرجال والأزمان . لأن هذا التصحيح غنيمة أنفس وأجدي من تفضيل نابغ على نابغ أو ترجيح جانب على جانب... إذ لا ضرر ولا قصور في اختلاف التفضيل والترجيح متى صحت النظرة واستقام القياس . تلك هي الحقيقة فيما يقال عن ندرة البطولة والنبوغ بيننا كما أراها ، أما تواتر القول بندرتها بين جماعة من الناقدين منهم أناس فضلاء محبوبون للأصاف فله أسباب قد نعود إلى تفصيلها ومناقشتها .

— ٢ —

« إن كان هذا — يا أخى — هو الذى أردتُ فأظن أنه لا يرد على بمزايا العصر الحاضر ، وعلم العصر الحاضر ، وفن العصر الحاضر . وإذا كان النبوغ في السبق وكانت المقارنة بين عصرين بقياس مسافتي البعد ، فأرجو أن نكون على وفاق فيما ذكرتَ وذكرتُ » .

وموضع الوفاق بين ما قال الأستاذ وما قلت أننا لا ينبغي أن نقيس علم السابقين إلى علم المحدثين ، فليست المقارنة بين مقدار ما نعلم ومقدار ما يعلمون ، وإنما المقارنة بين الملكات في الزمن الماضي ، والملكات في الزمن الحاضر ، وهذا ما يختلف عليه ؛ إذ لا موجب عندي لأن تكون ملكات النابغين في عصرنا أقل مما كانت في عصر الأقدمين .

إن النبوغ صفة في أصحابها وليست صفة في غيرهم ، فإذا تعلم غير النابغين أو لم يتعلموا فصفة النبوغ باقية في أصحابها سواء ظهروا بين المتعلمين أو ظهروا بين الجهلاء . وكل ما هنالك من فرق أن النابغة الذي يظهر بين المتعلمين أنبغ من زميله الذي يظهر بين الجهلاء ، وتلك شهادة للنابغين في العصر الحديث تضاف إلى ميزان الحسنات والمرجحات .

ومسافة البعد بين النابغ القديم ومعاصريه ، هي مسافة البعد بين نابغينا وأبناء عصرنا إذا نحن تجاوزنا مسألة التعليم ووفرة المتعلمين ، لأن النبوغ ملكة مطبوعة ، والمسافة بين المطبوعين وغير المطبوعين اليوم هي المسافة بين الفريقين قبل مائة عام أو ألف عام ، فليس فضل إديسون في زماننا أنه يعرف في علم الضوء وعلم الصوت ما ليس يعرفه أبناء عصره ، ولكننا فضلنا أنه نابغ وهم غير نابغين ، فأفاد بالعلم اليسير ما لم يفده الآخرون بالعلم الغزير ، وظلت المسافة بينهم وبينه في النبوغ كالمسافة بين أرخيد ومن عاصروه من غير النابغين ، وإن اختلف العصران في شيوع العلم وكثرة المتعلمين .

يقول الأستاذ الفاضل : « مقياس النابغة في نظري أن يفوق أهل زمانه ويسبقهم في فنه أو علمه أو أدبه حتى لا يدركوه إلا بعد أزمان ، وعلى مقدار هذا السبق يكون النبوغ . فسيبويه نابغة في النحو ، لأنه رأى من قواعده ما عجز أهل زمانه عن النظر إليه » .

وأنا أقول كما يقول الأستاذ : إن النابغة يفوق أهل زمانه في معرض من معارض العلوم والفنون ، ولكني لا أقول إن عصرنا لم ينبج أمثال سيبويه ، بل أقول إن سيبويه لو عاش في عصرنا لما فاق نوابغه الأحياء ، وإن نوابغنا الأحياء لو عاشوا في عصره لما قصرُوا عن شأوه ، لأن الملكات التي تعرف وحدة الأسماء والأفعال بين لغات أوروبا ولغات آسيا لا تقل عن الملكات التي تعرف الوحدة أو الاختلاف بين قبيلة وقبيلة من أبناء البادية ، لا لأن الأمر يرجع إلى كثرة المتعلمين عندنا وقلة المتعلمين قبل نيف وعشرة قرون .

وعندى أن المحاصرين ينظرون إلى نوابغهم وأبطالهم كما كان الأقدمون ينظرون إلى النوابغ والأبطال في عصورهم ، إلا من كان منهم موسوماً بسمة الدين أو محوطاً بهالة الإيمان . فالأستاذ يقول إن نابليون ظهر « فاستعبد الناس وأجرى الدماء أنهاراً وقلب الممالك رأساً على عقب ودوخ الدنيا فكان نابغة حقاً في ناحيه . وبيننا الآن في عصرنا من هم أعلم منه بفنون الحرب ومن هم أقوى منه إرادة وأبعد نظراً ، ولكن من الصعب أن نسميهم نوابغ ، لأن الناس ليسوا مغفلين كما كانوا أيام نابليون ، ولأنه وحده كان هو القاهر المرید ومن حوله كانوا المنفذين المأمورين ، فظهر ولم يظهر ونبغ ولم ينبغ بجانبه إلا قليل » .

فليت الأمر كما يبشرنا الأستاذ من هذه الناحية ، إنما الواقع أن أحداً من أبناء القرن الثانی عشر لم يناد بأن الإمبراطور معصوم كما ينادى الفاشيون من أبناء القرن العشرين بعصمة « الدوتشي » وطاعته بغير تفكير ولا امتعاض .

والواقع أن نابليون لم يجسر يوماً على صنيع كالذى صنعه « الفوهرر » قبل ثلاث سنوات من « تطهير » البلاد بلا محاكمة ولا سؤال .

وقد كان « لنين » ينحى على القديسين ، ولا يعترف للعظماء بأثر في توجيه التاريخ إلا الأثر الذى يعترف به الشيوعيون ، فلما مات أقاموا له ضريحاً لم يحلم به كاهن ولا راهب في عهد القياصرة أو عهد الكنائس والقديسين .

وإننا لنسمع كل يوم عن الألوف التى تندفع حول نوابغ الصور المتحركة للظفر بتوقيع بطاقة أو صورة شمسية ، كما نسمع بالألوف التى تندفع من أجل هذا حول أبطال الألعاب الرياضية وأبطال السياحة والطيران وأشباههم من أصحاب الشهرة في كل ميدان يتصل بالجاهير . أما العلماء والأدباء فمن نبغ منهم واشتهر فليس نصيبه من الإعجاب والجزاء بأقل من نصيب أمثاله قبل أجيال وأحقاب ، ومن لم ينبغ ولم يشتهر فله قرناء يماثلونه بؤساً وغبناً وشظفأً في أقرب العصور وأبعد العصور .

لا ، بل نحن لانستثنى أصحاب المسكاة الدينية على إطلاق الاستثناء ، فما يرجح

المدعاة باسم الدين اليوم لا يقل عما كانوا يربحونه في الأيام الخالية ؛ والثقة بأغاخان اليوم وهو يعيش في أوربا عيشة المترفين المتطلعين لا تقل عن الثقة بإمام زاهد عاكف على العبادة كان يعيش في صومعته قبل عصر الكشف والاختراع .

ولم ننفرد نحن با كبار البعيد في الزمان أو المكان وترجيحه على أئداده وقرنائه الذين نراهم رأى العين ونعرفهم بالمصاحبة اللقاء ، فقديمًا كانوا يقولون إن زامر الحى لا يحظى باطراب ، وقديمًا كان الجاحظ يكتب الرسائل وينحلها الكتاب الأسبقين ليحظى بالإصغاء والتقرىظ .

وأحسب أن إشار الماضى على هذا النمط له علة شائعة بل علل شائعات لا تنحصر فى وقت ولا يخلو منها قبيلى .

فالماضى يشبه المثل الأعلى لأنه غائب عن الأنظار كالمثل الأعلى فى هالاته وخيالاته ، أما الحاضر فهو كالواقع المحسوس الذى نحب أبدأ أن نتجاوزه ونطمح إلى ما وراءه ولقد كان المشركون ينكرون النبى عليه السلام ولا ينكرون منه إلا أنه « يا كل الطعام ويمشى فى الأسواق » . ترى هل كان الأنبياء فيما مضى لا يا كلون طعاماً ولا يمشون فى سوق ؟ كلا بل كانوا يا كلون ويمشون ، ولكنهم بعدوا واحتجبوا فخيلى إلى غير معاصريهم أنهم مختلفون .

ومن العلل التى تجنح ببعضهم إلى تهيب « السلف الصالح » أننا ننظر إليهم كما ننظر إلى الآباء والأجداد ، كأنهم كبار ونحن صغار ، لأنهم ولدوا قبلنا بمائة عام أو مئآت من الأعوام ، وينسى المتهيبون أن السابقين كانوا أطفالا فى سن الطفولة ، وأنا سنصبح شيوخاً مع السنين أو نربى فى الشيخوخة على أولئك الآباء والأجداد .

ومن تلك العلل ما أومأنا إليه فى مقالنا الأول عن سهو الذين يقارنون بين الماضى والحاضر فيجعلونهما كفتين تتساويان فى نطاق الزمان والمكان ، مع أن الحاضر زمن واحد والماضى حاضراً قد تكرر عشرات ومئات .

وعندنا نحن الوارثين للثقافة العربية سببان آخران لا يلحظان بهذه القوة

في جميع الشعوب : أحدهما أن العربي يعتز بالأنساب وينوط الفخار كله بماضيه ، لأنه من سلالة القبائل التي تغلب فيها العصبية وترسخ فيها الأصول .
والثاني أن الماضي أقرب إلى منشأ الدين ، فيخيل إلينا أن الأقدم فالأقدم هو الأصح فالأصلح والأعلم فالأعلم ، وإن لم تدلنا الدلائل على اطراد هذا القياس .

تلك الأسباب كلها خليفة أن تضاعف احتراسنا كلما عمدنا إلى الموازنة بين حاضر وغائب وقريب وبعيد ، فهي صنجة تؤخذ من كفة الأقدمين وتضاف إلى كفة المحدثين في ميزان الإنصاف . ومما لا شك فيه أن ملكات النبوغ لا تقل في عصرنا بل هي أحجى أن تزيد وتنشط ، بل هي قد زادت ونشطت فعلا باتساع مجال السعى والمنافسة والتفكير والاستنباط ؛ ومما لا شك فيه أن الأقدمين لم ينظروا إلى معاصريهم إلا كما ننظر نحن إلى معاصرينا ، وأنهم لم يشعروا قط بتلك المهابة التي نضيفها عليهم الآن ولا بذلك الترجيح الذي نمحضهم إياه . أما أنهم كانوا يرون نوابغهم وأبطالهم كما نراهم الآن فذلك ما يخالف فيه الأستاذ لأنه خلاف المعهود والمروى والمسطور . وهبهم أكبروا معاصريهم لأنهم قلائل ، وأصغرنا معاصرينا لأنهم كثيرون لا نادرون كما يقول الأستاذ الفاضل ، فإنما يكون ذلك كالذهب الذي يكثر تداوله فيرخص سعره وهو ذهب لا شك فيه ، وإنما يكون النبوغ نبوغا ولا يكون شيئا آخر مهما يكن حظ الناس من التعليم ، لأنه ملكة في الطباع لا يختلف كتبها وإن اختلفت أنظار الناس إليها ، ولا تزال الإنسانية بحاجة إلى الكثير منها والقليل .

وخلاصة القول أننا نستطيع أن نقول مع الأستاذ الكبير إن النبوغ في عصرنا كثرة لا ندرة ، ولا نستطيع أن نقول معه إن المسافة بين النابغ وسواد الناس تقترب في العصر الحديث ، لأن ازدياد التعليم يزيد نصيب المتعلم من المعرفة ولا يخوله فطرة أخرى ولا ملكة مطبوعة كتلك التي يخلق بها النابغون الممتازون .

توارد الخواطر

قبل أربع عشرة سنة كتب صديقنا الأستاذ المازني مقالا عن الخيام ألمع فيه إلى تصوف الخيام واستغرب أن يدين رجل مثله بخيالات المتصوفة وشطحاتهم البعيدة عن تحقيق العلم وتقرير الواقع لأنه « كانت له موهبة تنأى به عن التصوف : ذلك أنه كان رياضياً بارعاً ، ومما يذكر له في هذا الباب تنقيحه التقويم السنوي تنقيحاً أظهر فيه من الحدق والأستاذية ما أطلق لسان جيمون المؤرخ الإنجليزي بالثناء عليه . وله كذلك طائفة من الجداول الفلكية ومؤلف في علم الجبر بالعربية ، والذهن الرياضي مجاله وعمله ضبط الحدود والحصر وتعليق النتائج بأسبابها والمعلول بعلة ، وهو عمل يتطلب من الدقة والعناية والترتيب والتبويب مالا يطيقه أو يقوى عليه ذهن المتصوف . ومن العجيب أن فتزجرالد لم يفتن إلى دلالة هذا ولا خطر له أن يسوق هذه الحجة فيما ساقه لتبرئة الخيام من التصوف »

ومن رأيي الذي لا أزال أراه أن الملكات الرياضية أقرب الملكات إلى التصوف والفروض البعيدة والعقائد الخفية ، فكتبت يومئذ بصحيفة البلاغ مقالا عن القرائح الرياضية والتدين ، ناقشت فيه رأي الأستاذ المازني وبينت فيه أسباب العلاقة بين القرينة الرياضية وبين التدين والإيمان بالغيب ، وأهمها أن حقائق الرياضة ذهنية وليست خارجية ، فهي أقرب إلى الفروض وأبعد عن مراجعة الواقع الذي يراجعها علماء الحس والتجربة والمشاهدات العملية ، فاعتماد الرياضيين على البديهة أكثر من اعتمادهم على الملاحظة ، واستعانتهم بالفرض أكثر من استعانتهم بالتجربة : وموقفهم أمام الجهول موقف من يسلم به فرضاً ولا يستبعد فيه أى شيء ، وهذا سر تدينهم وإخباتهم وميلهم إلى تصديق المعجزات والخفايا وما شاكلها مما يلي البديهة الغامضة ولا تسكاد تجمعه بظواهر الأشياء صلة . وفي عصرنا هذا لم يشتهر أحد من الرياضيين

كما اشتهر أوليفر لودج الإنجليزي وفلاسريون الفرنسي وأديسون الأمريكي ، وكلهم من أعظم علماء الرياضيات ، وكلهم مسترسل في إثبات أسرار الروح وكشف غوامض الاستهواء .

قلنا : « لهذا تتآخى فروع هذه الحقائق أحياناً وتتآلف العلوم التي تبحث فيها وتتقارب الملكات التي تكون في المشتغلين بها ، فيكثر من يجمع بين الفلسفة والرياضة ولا يندر أن ترى من يجمع بينهما وبين الموسيقى معاً . فالفارابي مثلاً كان رياضياً مبتكراً في الموسيقى ، وفيثاغوراس — وهو من أقدم فلاسفة ما وراء الطبيعة عند اليونان — كان يبنى فلسفة الكون كله على النسب الموسيقية بين الأعداد . وقد مر بمصر قبل أيام نابغة من أفذاذ الرياضة هو ألبرت اينشتين صاحب فلسفة النسبية التي دهمت الناس ببداية شتى في تعريف الوقت والفضاء يكفي أن نذكر منها أن الخط المستقيم ليس من اللازم أن يكون أقرب موصل بين نقطتين . وهو فيلسوف رياضى وموسيقار بارع في العزف على القيثارة . وليس يخفى الشبه القريب بين ملامح العظماء من الفلاسفة والرياضيين وملامح العظماء من نوابغ الموسيقيين . فقد تلبس عليك صورهم حتى لا تكاد تميز بعضهم من بعض ولا سيما في نظرات العين وسعة الجبهة وارتفاعها . . . » ومن ذلك أن ينبع العازفون والحاسبون والعدادون في الطفولة الباكورة وفيما دون الخامسة أحياناً ولا يحصل ذلك في سائر العلوم .

ذكرنى ذلك البحث القديم الجديد اتفاق عجيب بين أمور متعددة لا رابطة بينها في هذه الأيام .

فالاستاذ المازنى يكتب عن توارده الخواطر ، وفي مقالى الأخير بالرسالة كلمة عن الرياضيات واتصالها بعالم الروح ، وبيننا أفكار فى هذه الموضوعات إذا بكتاب جديد يصدر من مطبعة « جولانكز » الإنجليزية عنوانه « عظماء الرياضيين » مؤلفه الأستاذ (بل) الرياضى المشهور فى الجامعات الأمريكية . فتصفحته واستقصيت بعض تراجعه فإذا به لا يقول ما قلته عن الصلة بين التدين والرياضة والموسيقى والحقائق الفرضية ،

ولكنه يعرض لنا تراجم العظماء الرياضيين وعجائب آرائهم ونوادر صباهم وطرائف أخبارهم فلا يسمع القارئ إلا أن يخرج منه بتلك النتائج التي أجمعناها قبل أربع عشرة سنة ، كأنها استقصاء ثم تلخيص لكل ما ورد في ذلك الكتاب .

من ذلك أن الرياضي الكبير سلفستريقول : « ألا يجوز إذن أن توصف الموسيقى بأنها رياضيات الحس وأن توصف الرياضيات بأنها موسيقى العقل ، وأن يقال إن الموسيقى يحس رياضياً وأن الرياضي يفكر موسيقياً ؟ فالموسيقى هي حلم الحياة ، والرياضة هي عمل الحياة ، وكلاهما تستوفي نصيبها من الأخرى حين يرتقى الذهن البشري إلى أوجه الأعلى ويسطوع في مزدوج من العبقرية يجمع بين موزار وديرشليه ، أو بين بيتهوفن وجاوس ، وهو الازدواج الذي تجلى وميض منه في عبقرية هلمهولتز وأعماله »

ومن ذلك أن الرياضي السويسري النادر المثلث ليونا إيلر الذي قيل فيه إنه يصنع المعادلات كما يتنفس الهواء ، كان شديد التدين ، وكان يصلي بالأسرة في منزله ، وخطر له أن ينتقل من العوبة دبروها في البلاط الروسي للفيلسوف «ديدرو» إلى الجد كل الجد في إثبات وجود الله بالمعادلات الرياضية . فلما تمادى ديدرو في تكفير رجال الحاشية الروسية ومجادلتهم في وجود الله تعمدت كاترين الكبيرة أن تداعبه وتفحمه من طريق الرياضيات التي كان يجهلها كما يجهل اللغة الصينية ، فوكلت به إيلر فواجهه في جد ورصانة ولفق له معادلة وتحداه أن يجيب إن استطاع الجواب ... فلم يدر الفيلسوف بماذا يجيب ، وكانت أضحوكة البلاط إلى حين .

قال الأستاذ (بل) مؤلف الكتاب : « ولم يقنع إيلر بفكاهته الفاخرة بل حاول بعد ذلك أن يجلو الزنقة وراح وهو جاد غاية الجد يركب المعادلات والبراهين الرياضية التي تثبت أن الله موجود وأن الروح مجردة من المادة . وقيل إن هذه البراهين تسربت إلى فلسفة الفقه والتصوف على أيامه فكانت على الأرجح نخبة الأزاهير التي تتمثل فيها عبقريته الرياضية بمنزل عن الشؤون العملية » .

ومن ذلك أن جاوس الملقب بملك الرياضيين عرف تصحيح الحساب قبل بلوغ

الثالثة من عمره وكان أبوه رئيساً لطائفة من العمال، فلما كان يوم السبت واستدعاهم لإحصاء ما لهم وما عليهم بمسمع من طفله الصغير غلط في الجملة فصاح به الطفل : « يا أبتاه ! ليس هذا بصحيح ، وإنما الصحيح كيت وكيت » وروجع الحساب فإذا هو على صواب . ويقول المؤلف : « ومما تشوق ملاحظته — لما هو مبهود في الرياضيين من الميل إلى الموسيقى — أن فيرستراس الكبير لم يكن يقبل الأنعام على ضرورها مع اتساع مشاركاته ، فلم تكن تعنيه ولم يزعم هو أنها تعنيه » .

وعندنا أن هذا غريب حقيق بالملاحظة كما قال المؤلف ، إلا أن غرابته تهون كثيراً متى ذكرنا أن فيرستراس هو القائل إن الرياضى لا تستقيم له ملكة الرياضة إلا بقسط من الشاعرية فيه ، وأنه كان يعارض إخوته في تعلم الموسيقى لأنهم كانوا يروضونه بها على الرقص وشهود المجتمعات .

وكان « كبلر » يزعم أنه اهتدى إلى نسبة بين حركات الكواكب السيارة ومواقعها تشابه النسب التى بين الأنعام الموسيقية والمقامات .

وتتعدد الأقوال التى ترجع بتركيب الكون كله إلى النسب الرياضية ولا سيما بعد ما ظهر فى السنوات الأخيرة من تحليل النور ورد المادة كلها إلى الإشعاع ، ورد الإشعاع كله إلى مقدورات عديدة يوشك أن تخرج به من عالم المادة إلى عالم الحساب فبعد مقال أفلاطون : « إن الله يهندس » ومقال جاليلى : « إن كتاب الطبيعة العظيم مكتوب بلغة الرياضيات » ومقال جا كوبى : « إن الله يحسب » يقول الأستاذ جينس فى كتابه « الكون الخفى » وهو من أقطاب العصر الحديث : « إن مهندس الكون الأعظم قد بدا لنا اليوم محض رياضى ... وإن الكون يالوح لنا رياضياً على منوال مخالف لكل معنى تصوره الفيلسوف « كانت » أو كان فى وسعه أن يتصوره فى أيامه ، فإن الرياضيات بالإيجاز تهبط إلى الكون من عل ولا تصعد إليه من الأدنى » ومن الاتفاق الذى ينساق فى هذا المساق ما رواه الأستاذ جينس فى كتابه المتقدم عن رأى هكسلى فى المصادفات وتوارد الخواطر . فهو يعتقد اعتقاده أننا

لو أسلمنا الآلات الكاتبة إلى ستة قرود يدقون على حروفها بغير قصد ولا معرفة ، ملايين بعد ملايين من السنين لكان لزاماً أن يجيء الوقت الذي « تنكتب » فيه بهذه الوسيلة جميع الكتب التي في المتحف البريطاني .

ولا يخفى ما يريده هكسلي بهذه النكتة المنطقية ، ولكنه على كل حال قد خرج بالمسألة إلى « ما وراء الطبيعة » وأبطل حكم العقل والإرادة فيها . فهما يطل عمر الإنسان فما هو ببالح أن يفسر لنا على هذا النمط اتفاق الخواطر في صفحة واحدة بله الألف من المجلدات التي تحويها دار الكتب البريطانية .

ولا حاجة إلى القروء الستة وملايين السنين والآلات الكاتبة لتعميل توارث الخواطر في الآراء أوفى العبارات ، فإن علم النفس يغنينا حيث لا يغني التطوح ملايين السنين وراء المشهود والمحسوس . وقد كان علم النفس كافياً حتى الآن لتعميل حفظ العقول صفحات عديدة في حالة « الفيوبية » أو حالة التنويم المغناطيسي أو حالة « التنويم الذاتي » أو ما يشبه هذه الحالات من عوارض الحمى العصبية . فإذا رأينا حالة كالتي رواها صديقنا الأستاذ المازني يستوعب فيها الإنسان بضع صفحات لا يخرم منها حرفاً ولا نقطة ثم يعيدها وهو معتقد أنه يملها من وحي بديته فلنرجع إلى علم النفس في وصف العوارض التي تأتي بهذه الغرائب فإنه لكفيل بتعليلها أو بإبداء مقطع الحق فيها .

وإنما العبرة من جميع ما تقدم أن نسأل : ترى لو صدر كتاب « عظماء الرياضيين » قبل كتابة المقال الذي ناقشت به الأستاذ المازني منذ أربع عشرة سنة ، أما كان أقرب الاحتمالات إلى الذهن أنني قرأت ذلك الكتاب واستوحيت منه التحليل الذي فرقت به بين عقول الطبيعيين وعقول الرياضيين وعقول الموسيقيين ؟ أما كان من المستغرب يومئذ أن يقال إنني لم أطلع على ذلك الكتاب وإن كان مؤلفه لم يبسط فيه الرأي الذي بسطته ، ولم يتجاوز أن جمع أخبار الرياضيين وعجائبهم في سجل واحد ؟ . فأما وصدور الكتاب بعد كتابة المقال محقق لاشك فيه فهذا التوافق يبدو

سهلاً جائزاً خلواً من الغرابة . ومن ثم ينبغي أن نقدم الاستقراء العقلي — في تمحيص
الخواطر المتواردة — على استقراء التاريخ مع رجاحة هذا وصعوبة الاستغناء عنه ،
لأن استقراء التاريخ وحده لا يكفي للبت في جميع الأمور .

ونعني بالاستقراء العقلي أن نمتحن ذهن الكاتب وأن نقابع وجهته في تفكيره ،
فإذا عرفنا أنه قمين أن يقول ما قال ، وأن يخوض حيث خاض ، ويتوجه حيث
توجه ، فالإتهام بعد ذلك ضرب من اللغو والتمحل ، وإن لم يكن كذلك فهو متهم
ولو لم يكشفه استقراء التاريخ .

أما حين يقع الاتفاق في العبارات والحروف صفحات متواليات فليس من المروءة
أن نجزم باستحالة ذلك قبل أن نحتكم إلى الاستقراء العقلي من طريق علم النفس
ودرس الذهن الذي تقع له أمثال هذه الغرائب ، فقد يهديننا الحكم الوئيد هنا حيث
يضلنا الحكم السريع ، ولا ضير علينا إذا تطابق الحكمان في النهاية بعد الموازنة والمقابلة
بين جميع الفروض .

لا نخدع أنفسنا حتى يخدعونا

لم نخدع أنفسنا حتى خدعنا الأوربيون عنها فانخدعنا ! .
ثم صدقنا أننا أهل عاطفة ولسنا أهل عقل ، وأننا أهل خيال ولسنا أهل حس
وأننا أهل روح ولسنا أهل مادة ، وأننا لذلك مخفقون .
وأننا مع الذين يقولون : إننا لسنا أهل عقل ولا أهل حس ولا أهل مادة ، ولكني
لست ممن يقولون : إن هذه « الاليسية » توجب لنا نقيضها وتعطينا مايقابلها ، فنصبح
أغنياء في الروح لمجرد أننا فقراء في المادة ، ونصبح نفاذين في الخيال لمجرد أننا
محبوبون عن الحس ، ونصبح و « العاطفة » فياضة من نفوسنا لمجرد أننا مستريحون
من العقل أو واقفون منه عند ينبوع جديب .
فجائر جداً أننا لا عاطفيون ولا عقليون ، ولا راحيون ولا ماديون ، ولا خياليون
ولا حسيون ؛ وأننا على نصيب نزر من جميع هذه الصفات فلا تستلزم القلة في إحداها
كثرة في نقيضها ، لأن الصفات الإنسانية لا تمشي عدلين عدلين متلازمين يعاوا أحدهما
حيث يهبط الآخر ضربة لازب . بل قد ينعدم العدلان والبعير معهما في كثير
من الأحيان . . . !

واليقين عندي أننا منذ زمن طويل فقراء في العاطفة محتاجون إليها أشد
من حاجتنا إلى العقل والعلم والحكمة وسائر مشتقاتها .
وكان هذا رأيي يوم ناقشني فيه فقيد العراق الأكبر جميل صدقي الزهاوي
المصلح الحكيم ، وكان — رحمه الله — يسألني : بماذا عبر لندنبرج المحيط
الأطلسي : أبالعقل أم بالعاطفة ؟ فأجيبه : « بالعاطفة » . . . فإن العاطفة لا العقل
هي التي أركبته الطائرة بعد أن فرغ العقل من تركيبها في المصنع وتركها حديد

لا تتحرك ولا تأتى بالفلق إلا أن تقدم بها عاطفة مجازفة لا تبالي العقل ولا تحفل
السلامة .

والذى كان يسمعه رحمه الله يتقسم حسبة الطيارة إلى كومين : كوم العاطفة
وكوم العقل ، يخيل إليه أننا نحن الشرقيين قد ظفرنا منها بكل ما فيها من عاطفة وهمة
وطموح ومغامرة واستطلاع ، ولم يبق منها للغربيين غير حفنة من مسامير ومطارق
وأرقام ، هى التى يرتع فيها العقل ما يشاء !

والآفة كلها من أوربة نفسها .

فقبل اتصال أوربة بالشرق لم يقل أحد من الشرقيين إن الشرقيين أهل أحلام
وخيالات ، وإنهم من رجال العاطفة وغيرهم من رجال العقل والواقع .

ولكن الأوربيين وصفونا هذه الصفة فاغترنا بها ومضينا فيها ، ولا سند لها
على الأرجح أقوى من ألف ليلة وليلة وما جرى مجراها من القصص والنوادر ، وهى
كما نعلم ليست « بالخيال » فى أى سمة من سماته ولكنها « واقع » مع إيقاف التنفيذ
كما يقولون فى لغة القانون ! وهى أحلام الجائع فى سوق الطعام ، لا فرق بينها وبين الواقع
إلا أن الجائع يستطيع الأكل فعلاً ، وهو عاجز عن الأكل لأن الأكل غير موجود !
فالخيال المزعوم عند الشرقيين هو « واقع ناقض » لا يحسب له فضل الواقع ،
ولا يحسب له فضل الخيال .

ولو كان خيالا حقاً لكان ابتكاراً وخلقاً وسعياً إلى عالم جديد ولم يكن واقعاً
فى كل شىء إلا فى أنه غير موجود .

فنحن واقعيون مفرطون فى الواقعية .

وكل الفرق بيننا وبين الأوربيين أن الأوربيين واقعيون يجدون المائدة التى
يأكلونها ، ولكننا نحن واقعيون نمضغ مائدة من الهواء . . . ومن الخطأ جد الخطأ
أن نسمّى من أجل ذلك خياليين أو حاملين .

أخيلاليون وحالمون لأننا نعيش في عالم ألف ليلة وليلة ؟ فما عالم ألف ليلة وليلة إذن ؟ عالم قصور وموائد وكنوز وفتيات حسان ... عالم واقع ملهوس تراه العيون وتذوقه الأفواه إلا أنه لا ينال ، وليس هذا هو الخيال .

بل الخيال هو فكرة يبيع الإنسان في سبيلها متاع الدنيا وكنوز الأرض وبهرج الحياة .

أوهو مثل أعلى لا تعرفه شهر زاد ، ولا يتبعه صائغ البصرة ، ولا تراه في ديوان من دواوين تلك القصص التي هي وسوق الرقيق سيان .
وبودنا ألف ود لو يعظم نصيب الشرق من هذا الخيال .

وقريب من هذا اعتقادنا أننا نحن المشاركة أهل السباحة والبر لأننا لا نصول ولا نجول ، أو لا نصنع اليوم السلاح الذي نصول به ونجول ! .
فماذا يوم كنا نصنعه ، أو يوم كان سلاحنا الذي نصل إليه كفيلا بالنصر على أعدائنا وعلى العزل المستضعفين من جيراننا ؟ .

كنا نتغنى بالسيف كما لم تتغن أمة قط بسلاح ، وكنا نغيب « رذيلة » السلم كما يعيرون اليوم رذيلة الكفاح .

ولعل الأموال التي بذلت في الخربين الغربيين لا تنقل عن الأموال التي بذلت فيه بين الشرقيين . ولعل جهودهم فيه لا تنقل عن جهودنا ، وثمرات أعمالهم فيه لا تنقل عن ثمرات أعمالنا ، وعلامات البر في عصرنا الحديث لا تنقل عن علاماته في سائر العصور .
فالإنسان إنسان حيث كان .

ذلك أصدق ميزان للخلائق الإنسانية في كل أمة وفي كل أوان .

وأحرى بنا فيما نعتقد أن ننجو بعقولنا من أحلام الأوربيين التي أفرغوها علينا لا من أحلامنا نحن فليست لنا بحمد الله أحلام من القوة بحيث تتقاضانا النجاة منها .

إن أناساً من هؤلاء الأوربيين أفزعهم بلادهم في القرن الثاني عشر وما بعده فلموا بالشرق كما يحلم آكل الأفيون بما يراه في غيبوبة الخدر والجود ، ونحوه صفات ليست منه وليس منها فأعجب الشرقيون بما كتبوه .

أو أن أولئك الكتاب الأوربيين قد تخيلوا أبطالهم من الشرقيين كما تتخيل الأبطال الذين تنحلهم في الروايات شمائل نتمنى أن نراها في عالم الحس فيعيننا طلابها .
أما الواقع فلا .

الواقع أننا نحن الشرقيين لسنا عاطفيين ولسنا مأخوذين بالروح ولا مفتقرين إلى من يسوق لنا المواعظ بالإقبال على المادة والانصراف كما يقولون عن الخيال .
ونحن أفرح من طفل بالدرهم وأعجز من طفل عن كسبه في سوق الابتكار .
أنحن أهل خيال ؟ .

سمع الله منكم أيها القوم ! .

لقد عشنا عصرنا الحديث نضرب المثل « بالجرسون » الرومي في الحرص على المليمات ، ولو رأينا معاهده في بلاده وفي بلادنا لعرفنا من صاحب الحرص ومن صاحب الأريحية وإن اختلفت العوارض والأشكال .
وربما ألقينا بقطعة اللحم من الفم لنزدرد قطعة اللحم التي في الماء .. !
أخيال هذا ؟ .

كلا ! ولا النحاس الذي يستحيل ذهباً ولا الصفقة التي يدركها الصعود في سوق القطن فتفتح الكنز كله بعد يوم .

ما في شيء من هذا خيال وإنما هو كله واقع العاجزين .

وبعد فنحن في عصر اضطراب الثقافات وارتجاج الأخلاق والمزايا لا جرم يخطر لنا أن ننظر فيما يصلح وفيما لا يصلح ، وفيما تعزبه النفوس وفيما تهون ، وأن نسأل أنفسنا ماذا نأخذ وماذا ندع مما يتمخض عنه عراك الأمم والدولات .

فلنكن على يقين — سواء كنا من طلاب الحرية أو طلاب القوة — أن النخوة مطلب لا غنى عنه في الحالتين وأننا محتاجون إليه ، وأن الخيال عدة لا يحصى عنها في المعسكرين ، وأننا نحن الشرقيين عُزلٌ منها ، وأن أمة من الأمم لن تصاب في سلمها ولا في حربها بمصاب هو أفدح عليها وأقبح بها من مصاب الانحصار في واقعها ، لأن الانحصار في الواقع خلة حيوانية وليس بخلة إنسانية ، وكلما ضاق أفق النفس عز عليها أن تخرج من الواقع القريب إذا أرادت الخروج منه ، ولا مناص لها أن تريد ذلك في بعض حالاتها .

تريد ذلك لتعلمو على أثرها ، وتعلمو على ضنكها ، وتعلمو على حاضرها في انتظار مستقبلها أو مستقبل بني قومها ، وتريده لتشير بأن الواقع الذي هي فيه دون الواقع الذي تبغيه .

وهذا هو الخيال الذي يرتفع بالنفس عن واقعها .

أما الخيال الذي هو ظل اللحم في الماء فذلك هو الواقع مشوباً بالعجز والغفلة . وأما « الواقعية » التي يقولون إنهم ينتقذون الشرق بها ويردون الشرق من أحلامه إليها فحذار حذار منها .. هي داء الشرقيين أجمعين ، وإنهم لأئمة الواقعيين بين العالمين .

القدوة والاصلاح

رويت في مقال لى كلمة الفلاح الكبير صاحب الأفدنة الكثيرة في «حمالة الجورب»
التي عابها على بعض المعلمين الإلزاميين ، وقال إنه لم يسمع بها إلا من هؤلاء المعلمين .
وقد كتب أديب في « الرسالة » يسبق على تلك الكلمة ، ويرى أنه كان
الأجدر بكتاب هذه السطور « ألا يسوق إلينا فكرة صاحب الأفدنة التي ترمى إلى
إصلاح المعلم الإلزامي ، لأنه إذا سئل عن العيب الذي يراه لا يجد ما يقوله سوى أنه
يعلم النشء التبطل والخذلة ، وكيفية وضع « حمالة الجورب » وإحسان رباط الرقبة
وهلم جرا . . . »

وجاءتني رسائل شتى في هذا الصدد ينظر بعض كاتبها إلى ملاحظة الوجيه
الريفى نظرة الفكاهة والمهولة ، ويشدد بعضهم فى الإنحاء عليها كأنها خطر على التعليم .
وعندى أن المعلم الإلزامى هو آخر من يحق له أن يكتم أمثال هذه الملاحظات
أو يطلب كتمانها ، لأن التعليم الإلزامى فى اعتقادى مشتق من اللزوم قبل أن يشتق
من الإلزام ، فلا يضيره أن يفكره كبير أو صغير حنقاً على حمالة الجورب أو حمالة
الخطب ! . . . ولا يفهم من اختلاف الآراء فى برامجه ومواده وأساليبه أن الخلاف
على أصوله وأساسه ، وإنما هو فى نهاية الأمر خلاف على الفروع والتفصيلات .
هذا سبب من الأسباب التى تأبى على المعلم الإلزامى خاصة أن يكتم ملاحظة
تساق فى معرض الرأى أو فى معرض الفكاهة عن هذا التعليم .

وسبب آخر أن المعلم الإلزامى مطالب قبل غيره باستطلاع « الحالة العقلية »
أو الحالات العقلية التى تتصل بتمعيشة الفلاح وأبناء الريف ، وهو أحرى أن يستطلع
ما يخصه ويخص عمله من تلك الحالات العقلية التى يتصدى لها فى تعليمه ، قبل أن
يتصدى لتعليم الحروف والأرقام وسائر الدروس .

قليل فيما قيل عن التعليم الإلزامي وأشارنا إليه في مقالنا السابق : « أليس الأجدى على الفلاح أن تطعمه وترفه عنه بهذه الأموال التي تنفقها على تعليمه إلزاماً وهو مفتقر إلى الطعام النافع والماء النظيف ؟ »

وكان من رأينا في ذلك أنك إذا أعطيت الفلاح ماء نظيفاً وهو جاهل صدف عنه وعافه وآثر عليه الماء السكر لأنه ماء « دسم » يروي الأصلاب كما يروي التراب .
وقلنا « إنك إذا أنشأت فلاحاً سليم الذوق مرهف الحس مفتوح العقل مستجيب السليقة فسيجرب وراءك لتعطيه الماء النظيف والغذاء الجيد والأدوية النافعة والنصائح القويمة ، ولا يجشمك كما يجشمك اليوم أن تعدو وراءه لتقصيه عن موارد الماء المكر « بدسمه وخيره » وتدنيه من مساقى الماء المرشح وموائد الغذاء المفيد » .

ومقطع الرأي في كل إصلاح اجتماعي — كما أحسب — أن القدوة فيه خير أنواع التعليم .

ولكن من تأتي القدوة في الريف ؟

بعض إخواننا المعنيين بالإصلاح يخيّل إليهم أن إقامة الوجهاء الريفيين في قراهم وسيلة ناجعة لعيم القدوة الحسنة في المعيشة ، وتعويد الفلاح الصغير أن يحيا في كوخه حياة الفلاح الكبير في القصور .

وهذا حق لو كان الفلاح الكبير قدوة صالحة في جميع الأحوال ، أو لو كان الوجهية في قريته مثلاً يحتذى في نظام المعيشة ومناهج السلوك .

لكننا نعلم أن الأمر لا يستقيم على هذا التقدير .

ونعلم أن كل فلاح كبير يصلح للقدوة ويتخذ مثلاً حسناً للسلوك فإلى جانبه عشرة يضلون من يقتدى بهم ويأبون أن يمثل بهم المتمثلون من الفقراء والضعفاء فيما هو من مظاهر « الوجهة » واليسار .

قال لي أحد هؤلاء الوجهاء مرة : لقد فسد الزمان وتغير الناس !

قلت : ولم ؟

قال : إنك لا تعرف الآن ابن فلان العظيم من ابن فلان الصعلوك ، ولا تميز الفتاة التي يملك أبوها ألف فدان من الفتاة التي يعمل أبوها في دكان أو يعمل في ديوان بين صغار الموظفين الموقوتين . . . هذه تلبس كما تلبس تلك ، وهذا يتأنق كما يتأنق ذاك ، و « البركة » في التقسيط لا بارك الله فيه .

قلت : وما يضيرك من ذلك ؟ إن كال فيه ضرر فعلى جيب اللابس لأعلى جيبك ، وإن لم يكن فيه ضرر فهو جمال ونظافة ورواج للقصارين والخائطين .
فتأفف وأبى أن يقتنع ، وظل يقول إن الأصول أصول ، والمقامات «محفوطة» لا ينبغي أن تزول أو تحول .

وسمنا آخرين من الوجهاء لا يبالون أن يجهروا في غير خجل ولا حرج قائلين :
من يخدمنا إذا لبس الفلاح الطربوش أو اغتر بما حصل في المدرسة الإلزامية من دروس الكتابة والحساب ؟ وإذا خدمنا هذا «الأفندي» الجديد فكم يطلب أجراً على الخدمة التي كان يؤديها وهو حاف قانع باللبدة والجلباب الأزرق راض بالخبز القفار .
هؤلاء الأغنياء لا يعقلون ما ينفعهم وما يضرهم ولا يدرون عاقبة هذا التفكير الأثيم .
والأنكأ من هذا أن الفلاح الفقير قد يحجم عن الاقتداء بنظافة الأغنياء إذا كانوا من النظفاء ، كما يحجم عن شراء السيارة والاستمتاع بالطعام الفاخر واللباس الأنيق .

فتمتنع القدوة من ثم لاعتقاد الغنى والفقير معاً أن النظافة والمعيشة الصالحة حق لصاحب المال كحقه في ركوب السيارة الخاصة والإيواء إلى الدار القوراء .
وتقول له كن نظيفاً كفلان بك أو فلان باشا فيستكبر هذا الكلام منك ويقول لك في جد الوثائق من صوابه وسداد رأيه : وأين أنا من هذا وذاك ؟ ولواسترسل قليلاً لزعم أن النظافة منه افتيات على حقوق الموسرين وخروج على الأدب الحميد ! . . .

نعود إذن فنسأل : ممن تأتي القدوة الصالحة إذا علمنا كما أسلفنا أن القدوة

« الشخصية » خير وسائل التعليم في الإصلاح الاجتماعي ؟

تأتي من بعض الأغنياء الرحماء العارفين حين يقيمون في الريف إقامة يتصل فيها

العطف والود الكريم بينهم وبين الفقراء وكم عدد هؤلاء الأغنياء الرحماء العارفين ؟

قليل ولا ريب ، والرجاء في ارتقاء معيشة الفلاح الصغير أقرب من الرجاء في

زيادة هؤلاء .

فأفضل القدوة وأنفعها على هذا ما جاء من قبل المعلمين الذين يشبهون الفلاح

في نشأته فيعمد إلى التشبه بهم غير متخرج ولا معتقد في نفسه أنه يعد وطوره

ويخرج من أفقه .

وهنا يأتي دور المعلم الإلزامي في الإصلاح ، فيجمع بين الإصلاح والتعليم والإصلاح

بالقدوة الساتفة في رأى الفلاح ، ويروح في القرية وهو معلم الأبناء والآباء على السواء .

كن أيها المعلم الإلزامي قدوة لمن حولك ، وكن على حال ينظر إليها الفلاح فيحب

أن يتشبه بها ويرى بعينه دلائل الخير في محاسنها ، ثم يأنس إلى نصيحك بعد

ما أنس إلى عملك ، فيسمع منك القول ويحمد منك العمل . فأنت بما تهديه وتلقى

في روعه مصلح جيل لا تفلح في إصلاحه المدرسة وحدها ، ولا الكلام الذي يجري

به اللسان أو تنطوي عليه الأوراق .

المال

قال الدكتور زكي مبارك في حديثه عن الفقر والغنى ، ولا نهائية لحديث الفقر والغنى ، ولا الفقر والغنى ينتهيان من الدنيا .

« ... لن أقول كلمة في الوارثين بحجة أنهم يرزقون بلاكد ولا اجتهاد ، فلو عطل نظام الميراث لانعدم النشاط الإنساني بعض الانعدام ، ولاثر الناس جميعاً أن تكون جهودهم مقصورة على كسب القوت من يوم إلى يوم . ولو قلنا الحق كل الحق لصرحنا بأن الميراث هو أجهل نظام عرفته الإنسانية ، فهو الشاهد على أن الجهاد في طلب الرزق لا يضيع ، وأنه قد يصل إلى الأعقاب وأعقاب الأعقاب ، وذلك أقوى حافز لتأريث عزائم الرجال » .

ورأي في الميراث أنه حق وعدل ، وأن المذاهب الاجتماعية التي تحرمه تجور على الآباء والأبناء ، ولا تتحرى سنن الطبيعة فيما جرت عليه بين جميع الأحياء ، لأن المجتمع لا يستطيع أن يحول بين الأب وبين توريث أبنائه ما اشتمل عليه من عيوب الخلق والفكر ومن دمامة الوجه وشوه الجسم وضعف التركيب ؛ فليس من العدل أن يحول بينه وبين توريثهم الخير أو نصيباً من الخير ، وإن كان عدلاً أن تفرض للمجتمع حصة وافية من ذلك النصيب .

كذلك تجرى الطبيعة على سنة الوراثة في جميع السلالات ، وهي سنة أعرق من المجتمعات الإنسانية وغير الإنسانية ، ولم تنشأ عبثاً ليلغيها الإنسان كل الإلغاء بقانون أو نظام .

لكنني أخالف الدكتور في قوله إن الميراث لو عطل « لآثر الناس جميعاً أن تكون مقصورة على كسب القوت من يوم إلى يوم ... » .

فإن طلب المال كطالب العلم فطرة لا تتوقف على التوريث ولا على ما يعقبه

الآباء للأبناء ، وقد يهمل الإنسان رزقه ورزق أبنائه ليتابع الدرس ويتقصى مسألة من مسائل العلم والمعرفة ، وهو على يقين أنه لن يخلف لأبنائه زاداً من علومه ودروسه إلا ما يخلف المعلمون للمتعلمين ، وقد يفوتهم منه حتى هذا النصيب .

وبين طلاب المال من بلغ أرذل العمر وليس له عقب ولا هو ممن يبسطون الكف بالإففاق فيخشى نفاد ماله الكثير ، ومنهم من لو بسط يده بالإففاق عشرات السنين لما خشى على ماله النفاد .

أعرف رجلاً له نظراء كثيرون كان يملك القصور ويدخر الأموال في المصارف وله معاش لا ينقطع من خزانة الحكومة ، وهو مع هذا ييخل على نفسه بالقليل ويعيش معيشة الفقراء ، ويراہ الخوزية في الطريق فيهربون منه لأنه يأبى أن ينقدهم الأجر إلا على حساب ما تعود قبل أربعين أو خمسين سنة . . . يوم كان للمليم سعر القرش في هذه الأيام . وأعجب العجب أن هذا الرجل الشحيح كان مجدوداً في أوراق المصارف التي يئاط بها النصيب فكان يربح جوائزها الأولى من حين إلى حين . وحدث مرة أن وكيله تسلم جائزة من هذه الجوائز وأخر إيداعها المصرف الذي يعاملونه بضعة أيام ، فلما راجع الغنى الشحيح حسابه قطع أرباح الجائزة في هذه الأيام القليلة من مرتب الوكيل المسكين ، وهو شيء يبذله من يربح مثل هذه الجائزة هبة لمن يحمل إليه بشارتها ولا يندم عليه .

ولم يكن لهذا الرجل عقب ولا كان له مطعم في العيش الطويل بعد السن التي ارتفع إليها ، ولكنه يطلب المال لأن طلب المال شهوة ولا يشترط أن تتعلق بالإففاق والتورث .

ولو نظر الناس إلى الواقع في أمر الورثة لما حرصوا على ترك المال بعدهم للأبناء والأحفاد ؛ فإن أبناء الفقراء الذين عاشوا في الدنيا عيشة راضية بغير ميراث يبلغون أضعاف الوارثين عدة سواء ورثوا الكثير أو القليل ، وأن الذين أشقاهم الميراث لا يقلون عن الذين سعدوا به وحفظوه أو زادوا عليه ، وأن الذين يموتون وهم خائفون

من تبديد أبنائهم ثروتهم أكثر جسداً من الذين يموتون وهم مطمئنون إلى حسن التصرف ودوام الحال .

كان العلامة يعقوب صروف ، طيب الله ثراه ، يوصيني كلما لقيته أن أدخر وأن أحسب حساب المال والثراء ، وكأنه أنس منى التواني في الإصغاء إلى هذه النصيحة فروى لي حديثاً جرى بينه وبين تاجر من كبار التجار السوريين ، العصاميين رآه مشغول البال معني بما يخشاه على ثروته وأبنائه بعد موته من تقسم وبقار . قال : وهكذا الدنيا دواليك بين جميل عصامي يجمع ، وجميل عظامي يضيع ما جمعه الآباء ، ويأتي بالمعذرة لمن يتركون الأبناء فقراء ناشطين في طلب الجاه والثراء .

قال العلامة صروف : ومنذ أيام طرق علينا الباب أبناء صاحب من أصحابنا مات فجأة وليس في الدار ما يشيعونه به إلى لحده ؛ وكان هذا الصاحب مفراحاً ، يأكل ما يشتهي ويلبس الفاخر من الثياب ، ويطعم أبنائه أحسن مطعم ، ويكسوهم أجل كسوة ، ويقضى سهراته بينهم ضاحكاً متلهلاً على صينية من الحلوى أو الفاكهة وهو لا يشغل باله لحظة بما يكون ، ولا يبالي بعد موته ما يأكلون ويشربون . فأى الأبرين أسعد ؟ وأى الأبناء أحظى بحسن المصير ؟

وهذا السؤال الذي سأله الدكتور صروف سيمظل أمد الزمان مسئولاً يجيبه من يشاء كما يشاء ؛ ولكنه جواب لن يجعل المفراح مشغولاً بتوريث أبنائه ، ولا المشغول بتوريث الأبناء مفراحاً ينعم بالحاضر ولا يعني نفسه بالغييب المجهول . خديعة من خدائع النفس أن تعمل حرصها على المال بحب الأبناء ، ولو كان حباً مانعاً أن ينفق الإنسان كل ما عنده لكان حبه لنفسه وخوفه على غده أخرى أن يمنعه ويقبض يديه ، ولكنها خديعة النفس كما نقول تتراءى لها في مختلف الذرائع والتغلات .

إنما تفسر أعمال الإنسان بالبواعث والدوافع قبل أن تفسر بالنتائج والغايات . وإذا قيل لنا إن فلاناً يجمع المال لأنه يخاف عاقبة الفقر ، قلنا : ولماذا يخاف هذه العاقبة

التي لا يخافها غيره !! إنه لا يخالف غيره إلا لاختلاف البواعث النفسية دون الاختلاف في الغايات التي قد يتفقون عليها من جانب التأمل والتفكير .

المال يطلبه الإنسان لباعث قبل أن يطلبه لغاية ، ومن بواعث طلبه الخوف والمنافسة والطموح وحب الكسب للكسب ، كما يفرح اللاعب بالرهان الذي ليس من ورائه طائل ، وهنا موضع التحذير للمصلحين الذين يعالجون مسألة الغنى والفقر على أساس الأرقام والقواعد الاقتصادية وينفلون علاجها على أساس الشعور والبواعث النفسية . فأنت إذا أعطيت الفارس قصبة السبق قبل دخوله الميدان لم ترحمه ولم تعطه ما يريد ؛ وإذا منعت المتنافسين أن يتنافسوا لأنك ضمنت الرزق لأبنائهم أو ضمنت الأمان لهم في عقباهم لم تستأصل أسباب التنافس ولم تعطهم الحياة التي جعلتهم يتنافسون .

إنما الواجب أن ندع الناس يطلبون المال كما يطلبون العلم أو يطلبون الجاه أو يطلبون السرور أو يطلبون الفرص النادرة والمقام المجهولة ، وليس علينا أن نسألهم لماذا يطلبونه ، وإنما علينا أن نمنعهم إنفاقه فيما يضير الآخرين ، فغاية ما يحق للمجتمع في هذا الصدد أن يحرم الفس والجرور وتخويل أناس بغير حق ما يحرمه غيرهم من العاملين . كان أوليفر لودج عالماً رياضياً من الطراز الأول ، وكانت له بحوث مشهورة في مخاطبة الأرواح وما وراء المادة ، وربما انصرف أحياناً من الرياضيات والروحيات إلى المباحث الاجتماعية وشؤون الثروة والسياسة ، ولكنه كان يأتي فيها إذا انصرف إليها بمتطع الرأي وفصل الخطاب ، لأنه بعيد من الهوى والتشيع لهذا المذهب أو ذاك .. فمن نصائح في هذا الباب أن تتولى الدولة مراقبة المال كما تتولى مراقبة السلاح ، لأن الخطر من سوء استخدام المال لا يقل عن الخطر من سوء استخدام السلاح ، وربما ظهرت جريمة السلاح بعد اقتنائها بقليل ولقي صاحبها من الجزاء ما فيه عبرة لغيره ؛ أما جريمة المال فقد ينقضى العمر وهي خافية ؛ وقد يقترفها أناس بعيدون من الشبهات لأنهم ليسوا من حثالة الخلق الذين يعتدون بالخناجر والمسدسات .

فإذا وجبت مراقبة المال في أيدي المسيطرين به على سواد الناس فمن الواجب أن تكون الرقابة على النحو الذي قصد إليه الرياضى الكبير ، ولا سيما في العصر الذي أصبح المال فيه مرادفاً لمعنى الثقة والائتمان ، فلا يجوز في هذا العصر أن توضع الثقة الاجتماعية في أيدي أناس يعبثون بها جهرة أو خفية ، ولا يجوز إذا هي وضعت في بعض الأيدي أن تترك هملاً بغير رقابة أو حيلة أو بغير علم بما تتجه إليه وتجري فيه .
وهنا نسأل : ما هي حدود الرقابة الاجتماعية على سيطرة الأموال في أيدي الأفراد أو الجماعات التي تسوس أموال الأفراد ؟

وجواب هذا السؤال أن الرقابة الوحيدة الممنوعة هي الرقابة التي تشمل الدوافع النفسية والبواعث الحيوية وتخرجها في نظامها مخرج الجهود الآلية والأرقام الحسابية فإن المجتمع الإنساني لن يكسب شيئاً من تنظيمه النفوس تنظيم الآلات التي تتحرك بأمر وتسكن بأمر ولا تتخطى ما يرسم لها من الخطوط والغايات .
فلمجتمع أن يراقب المال وأن يأخذ نصيبه منه للمصلحة الاجتماعية التي يشترك فيها الأغنياء والفقراء ، ولكن ليس للمجتمع أن يمسخ الطبيعة ويجور على حركات النفوس وبواعث الحياة لأنه يتعرض بالقوانين لأمر لم تخلقه القوانين ، ويأخذ ما ليس في وسعه أن يردّه أو يعوضه بمثله .

الزوجة المثلى

وصلت إلى محاضرة العالم الفاضل الدكتور عبد المعطى خيال عميد كلية الحقوق بالاسكندرية في موضوع « الزوجة المثلى » ، وفيها يقول ما فحواه إن الآفة كلها هي : « حرص الشباب على المادة ، وجريه وراء الكسب ، وحظه من القيم التى خلفها السلف الصالح ومن قواعد الأخلاق التى كانت مقررة عندهم ، واكتفاؤه بالعاجل من اللذات » وظهر فى « الرسالة » مقال صديقنا الأستاذ الزيات الذى يعقب به على خطاب السيدة « ليلى » ، وما رأيته من أن السبب المباشر والمصدر الأول لمشكلة الزواج هو المادة ، وكان ختام مقاله : « إن المال إذا جعل غاية للزواج كان شقاء لمن وجدته ولمن فقدته على السواء . . . »

وعندى أن المادة هى آفة العصر الحديث كله ، وفى عداد مشاكلكه الكبرى مشكلة الزواج . فالتناس لا يتهاككون على المادة ولا على اللذة العاجلة إلا إذا قلّ إيمانهم بالحياة . ومن ثم يغلب الشح على الشيوخ والضعفاء ، كما يغلب على الشعوب التى ضاعت من أيديها السيادة وقيم الحياة العليا . فكل تهالك على المادة إنما هو بديل من الحياة الصحيحة ، أو من الثقة بنفاسة الحياة ، وكأنما يقول الإنسان لنفسه : علام الصبر والانتظار والإرجاء ، وأى ضمان لك من الأخلاق والعواطف وهى هباء ؟ إنما ضمانك الوحيد المادة التى فى يديك ، والمنفعة التى تسوق غيرك إليك ، وكل ما عدا ذلك فهو فضول لا يجدى شيئاً عليك .

لكن الزواج مشكلة كبرى ، ولو خلس الناس من آفات العصر ومشكلاته ومن ولع الشباب بمآربه ولذاته .

الزواج مشكلة لأنه يحاول التوفيق بين نقائص كثيرة فى الطبيعة الإنسانية ، ولا يقتصر أمره على التوفيق بين فردين .

فمن الناس من يظن أن الزوجة المثلى هي المرأة المثلى ؛ وهذا في اعتقادنا خطأ ظاهر يتكشف بقليل من الروية .

لأن المرأة المثلى من شأن الطبيعة .

أما الزوجة المثلى فمن شأن المجتمع والآداب الإنسانية حسبما تتعاقب بها الأزمان . وقد تكون المرأة أنثى طبيعية من الطراز الأول في تكوين الأنوثة ؛ وليس من اللازم بعد هذا أن تكون زوجة من الطراز الأول في معاشرتها لزوجها وفي أمومتها أو في رعايتها للآداب وقيودها .

وقد تكون المرأة زوجة مثلى في البيت والأمة ، ومع الزوج والولد ، ولا يلزم من ذلك أن تبلغ فيها الأنوثة الطبيعية تمامها .

وتنجلي هذه الحقيقة بعض الجلاء إذا تذكرنا أن الحيوان فيه إناث مثليات في عرف الطبيعة ، وليس فيه زوجات مثليات على النحو الذي يتطلبه الإنسان . وهنا مشكلة ليست بالهينة من مشكلات الزواج ، لأنها مشكلة التوفيق بين ما توحيه طبيعة الأنثى ، وبين ما تمليه آداب المجتمعات ، وهما شيئان لا يتفقان كل الاتفاق .

ويفهم بعض الناس أن الزوجة المثلى هي التي ترضى الرجل ، وأن الزوج الأمثل هو الذي يرضى المرأة .

وهذا خطأ آخر من أخطاء الآراء في هذا الموضوع ، ويكفي أن نسأل : ما هو غرض الزواج ؟ ليكون الجواب تصحيحاً سريعاً لهذا الخطأ المشهور .

الزواج مقصود لأنه وظيفة اجتماعية ونزعة إنسانية ، ويصح أن يتم أداء هذه الوظيفة بمضايقة الزوجين معاً أو بمضايقة زوج واحد منهما ، كما يصح أن يتم أدائها بما يرضى أحدهما أو كليهما ، فلا غرابة من أجل هذا أن تبر الزوجة المثلى بعهد الزواج وهي لا ترضى الرجل كل الإرضاء في كل حين . وأن يبر الزوج الأمثل بذلك العهد وهو مكره على إغضاب حليته التي يتوخى لها الإرضاء والإيناس .

وهنا مشكلة ليست بالهينة كذلك من مشكلات الزواج ، لأنها مشكلة التوفيق بين الهوى والواجب ، أو بين النظر القريب والنظر البعيد ، وهي المشكلة الخالدة في حياة الإنسان .

ومن المشكلات في هذا الباب أن الزوج الأمثل لامرأة لا يلزم أن يصبح زوجاً أمثل لامرأة أخرى . فالرجل في الأربعين زوج أمثل لامرأة في حدود الثلاثين ، والرجل الذي فيه صلابة زوج أمثل للمرأة التي فيها شكاسة ، والرجل الحليم المتشد زوج أمثل للمرأة المتعجلة الرعناء ، ولكنهم يختلفون ولا يتوافقون هذا التوافق ، فإذا هم أسوأ الأمثلة للأزواج وأقلهم أملاً في الرفاء والوفاء .

والبيت مشكلة المشاكل في العصر الحديث . ففي العصور الماضية كانت المسافة قريبة جداً بين العالم البيتي والعالم الخارجي ، وكانت الملاهي الخارجية أشبه شيء بملاهي المنابر في البيوت مع قليل من التوسع والتعميم . فلم يكن من العسير أن تنفق معيشة الأسرة ومعيشة المحافل الساهرة ولو كانت محافل لهُو وانطلاق .

أما اليوم ، فالمسافة بعيدة جداً بين عالم البيت والعالم الخارجي ، لأن المناظر التي يراها الساهر في العالم الخارجي لا يراها في بيته ولو كان من أهل السعة واليسار ، وإنما نشأ هذا عن اختراع الآلات التي تعمل للألوف وألوف الألوف ولا تقصر عملها على جماعات من الناس يعدون بالعشرات كما كانت محافل اللهو في العصر القديم . وليس من المعقول أن تنفق الشركات مليون ريال على منظر سينما يدار في مندرة أو بهو أو قصر كبير بضع ساعات ؛ ولا نعرف اختراعاً من هذه الاختراعات يوافق الحياة البيئية غير المذيع الذي يسهل اقتناؤه في الصغير والكبير من البيوت ، وهو وحده لا يغني عن سائر الأثانين التي تنوع في محافل السهرات .

فالبليت في العصر الحديث مهدد الأساس ، ولا وقاية له من هذا التهديد إلا الإقلال من العواصم الكبرى وتسجيع الإقامة في الريف ، وإلا تربية الذوق المستقل الذي يصعب انغماسه في غمرة الجماهير ، وتربية الإرادة الفردية التي يهملها أن تنطوى على نفسها حيناً بعد حين ، ويعجبها أن تنعم بالمشرة الأخوية بين الصحب المتفاهمين والأقارب المتعاونين ، فوق إعجابها بضجة السواد وزحام القطيع .
وليس ما نذكره هنا حلاً لمشكلة الزواج ولا علاجاً حاسماً لآفات العصر الحديث ، ولكنه محاولة لفهم المشاكل على حقيقتها لا غنى عنها وعن أمثالها قبل الرجاء في علاج ناجح ؛ إذ كل علاج لا يسبقه الفهم الصحيح يقع على غير الداء ، وقد يضاعف الأذى ولا يدنى من الشفاء .

إلا أننا نعتقد أن الحلول جميعاً لن تحل الزواج من عقدة مؤرّبة باقية على الزمن كله ، لأنها قائمة على طبيعة في النفس الإنسانية لا يرجى لها تبديل كبير .
تلك العقيدة هي غرابة الأسرار الجنسية التي تدفع بالرجل إلى اختيار المرأة ، وتدفع بالمرأة إلى اختيار الرجل . فليس لزماً أن يحب الرجل امرأة تستحق حبه ، أو تصلحه وتصلح أبنائه ، أو تجده فيه مزية كالمزية التي يجدها فيها ؛ بل يتفق كثيراً أن يترك المرأة التي تسعده ويتعلق بالمرأة التي تشقيه ، ويتفق كثيراً أن يهواها للأسباب التي توجب عليه اجتواءها والإعراض عنها . وشأن المرأة في هذه الخليقة أعجب من شأن الرجل وأنأى عن الرشد ودواعي الاختيار المميز البصير ؛ فإن إخلاصها لمن يستحق منها الإخلاص أندر من إخلاصها لمن يفسدونها ويسئون إليها ، وهي خليقة لها أسرار أعظم من عرف المجتمع وآداب الزواج وأواصر الأهل والأسر ، وليس بالميسور مع بقائها في الطباع خلو الزواج من المشكلات .

ولكن الطبيعة تهدينا إلى بعض الأسرار ، كما تخفي عنا كثيراً من الأسرار ، وحسبنا أن تقتدى بها في أساليبها لننتهي إلى شيء في هذا الباب خير من لا شيء .

فإن أساليبها في علاقة الجنسین تجري في نهجين متطرفين لا يختلفان بين الإنسان وسائر الحيوان ، وإن اختلفت في الحيوان العاقل بعض المظاهر والغايات .

أول هذين النهجين هو مزج الواجب بالسرور ، فلا يخدم الإنسان النوع بإدامة النسل أو بالإصلاح والإرشاد إلا وفي خدمته سروره يقوِّيه على واجبه ويغريه باحتماله .
وثاني هذين النهجين « التوريط » الذي يقيد الإنسان حين يريد الإفلات فلا يقدر على الإفلات ، لأن مصاعب النجاة من الحالة التي يعانيها أكبر من مصاعب الصبر عليها بعد وقوعه فيها . وخير الأمثلة على ذلك كفالة الأبناء ومتابعة السعي في سبيل المجد من مرحلة إلى مرحلة ، وقد كان الساعي فيه يحسب أنه مستريح بعد المرحلة الأولى .

وتلك هداية لا يعدم الفائدة من يتوخاها في علاج جميع المشكلات .

ما يمكن تبديله

عقب أحد الأدباء على ما كتبناه في « عبقرية محمد » عن رواية النبي عليه السلام للشعر وقال : (. . . في ص ١٤٤) يذكر أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يتمثل بشطرات من أبيات يبدل وزنها كلما أمكن تبديله . فكان يقول مثلاً : « ويأتيك بالأخبار من لم تزود » لأنها لا تقبل التبديل ، ولكنه إذا نطق يقول سحيم بنى الحساس : « كفى الشيب والإسلام للمرء ناهياً » قدم كلمة الإسلام فقال : « كفى الإسلام والشيب المرء ناهياً » .

ثم يعقب الأديب فيقول : (وتقسيم ما يتمثل به الرسول عليه الصلاة والسلام إلى ما يمكن تبديله لم يورد المؤلف ما يؤيده ويقتضيه . والمثال الذي ذكره لما لا يمكن تبديله غدير صحيح ، فإن تبديله ممكن ، وقد روى أن الرسول عليه الصلاة والسلام تمثل به هكذا : « ويأتيك من لم تزود بالأخبار » . راجع السيرة الحلبية في باب الهجرة إلى المدينة) .

والذي نعقب به على تعقيب الأديب هو الكلام فيما يمكن تبديله من الشعر والنثر وكل ماله معنى من القول .

فإذا كان المقصود بالتبديل هو نقل كلمة في موضع كلمة بغير نظر إلى المعنى والسياق فالتبديل ممكن في كل كلام بلا استثناء ؛ إذ ليس للكلام قوة مادية تمنعك أن تقدم فيه وتؤخر كما تشاء ، وفي وسع كل قارئ أن يعتمد إلى كتاب من الكتب فيقرأه عكساً وطرذاً ، ومن أسفله إلى أعلاه ، ويضع الأول في موضع الوسط والوسط في موضع الأول ، ثم يعود فيصنع به مثل ذلك إلى غير انتهاء ، فلا يستعصى عليه عصى ولا يحول دونه حائل .

وليس هذا بالبداهة هو التبديل المقصود حين نقول بإمكان التبديل أو استعصائه وإنما المقصود هو التبديل مع بقاء المعنى وبقاء المزية الكلامية أو المزية البلاغية التي من أجلها كان الشعر أو النثر مستحقاً لروايته والاستشهاد به .

وكثير من المعنى ومن المزية البلاغية يتوقف على تقديم كلمة إلى موضع أخرى حتى في العبارة التي لا تتجاوز كلمتين أو ثلاث كلمات .

فالعالم زيد غير زيد العالم ، وما اختلف منهما إلا تبديل موضع الكلمتين . لأن « العالم زيد » قد تفيد أنك تخص زيداً بالعلم وتنفيه عن غيره ، وليس هذا مستغداً من « زيد العالم » على هذا الوجه .

وقد شرح علماء البلاغة دلالة التقديم والتأخير وعرض لما الإمام الجرجاني فقال مما قال في دلائل الإعجاز : « ... إنه قد يكون من أغراض الناس في فعل ما أن يقع بإنسان بعينه ولا يبالون من أوقعه ، كمثل ما يعلم من حالهم في حال الخارجي يخرج فيعيث ويفسد ويكثر به الأذى ، إنهم يريدون قتله ولا يبالون من كان القتل منه ولا يعينهم منه شيء ، فإذا قتل وأراد سريده الأخبار بذلك فإنه يقدم ذكر الخارجي فيقول : قتل الخارجي زيد ، ولا يقول قتل زيد الخارجي ، لأنه يعلم أن ليس للناس في أن يعلموا أن القتل له زيد جدوى وفائدة فيعنيهم ذكره ويهمهم ويتصل بمسرتهم ويعلم من حالهم أن الذي هم متوقعون له ومتطلعون إليه . متى يكون وقوع القتل بالخارجي المفسد وإنهم قد كفوا شره وتخلصوا منه ... » إلى آخر ما قال .

على أن الحكمة في التقديم والتأخير معنى من معاني العقل والمنطق وليست بقاعدة من قواعد اللغة وحسب .

ولهذا ينص عليها في جميع اللغات ولا يقتصر التنبيه إليها على لسان دون لسان .

فالإنجليز مثلاً يذهبون إلى الفرق بين معاني العبارات إذا تغير موضع كلمة واحدة

فيها ، ويمثلون لذلك بأمثلة كثيرة منها هذه الأمثلة الأربعة :

١ — أنا « فقط » أحدث بهذه القصة إلى فلان .

٢ — أنا أتحدث فقط بهذه القصة إلى فلان .

٣ — أنا أتحدث بهذه القصة فقط إلى فلان .

٤ — أنا أتحدث بهذه القصة إلى فلان فقط .

فالفرق بعيد جداً بين كل عبارة من هذه العبارات و بين سائرهما لتغير الموضع الذى توضع فيه كلمة واحدة .

لأن العبارة الأولى معناها أنى وحدى أتحدث بهذه القصة إلى الشخص المذكور والعبارة الثانية معناها أنى أتحدث فقط ولا يصدر منى شيء غير الحديث ، وقد يتحدث به غيرى كذلك .

والعبارة الثالثة معناها أنى أتحدث بالقصة فقط إلى فلان ، ولا يتعدى التخصيص ذلك ، فكل ما عدا هذا التخصيص فهو عام لا تقييد فيه .

والعبارة الرابعة معناها أن المتحدث إليه هو فلان فقط وليس إنساناً غيره ، ولا تخصيص للقصة ولا للمتحدث ولا للحديث .

وتبديل الموضع الذى توضع فيه كلمة فقط ممكن جداً لكل من أراد ، ولكن المهم هو المعنى الذى يترتب على هذا الإمكان . فإن كان المقصود أن نحافظ على معنى لا يتغير بالتبديل مستحيل أو كالمستحيل ، وإن لم يكن هنالك معنى مقصود فبديل وقدّم وأخر كما تشاء .

ونأتى إلى الأبيات التى نطق بها النبی علیه السلام فننظر ماذا كان يترتب على التبديل فى مواضع كلماتها ؟

إن منها لا بيتاً لا يتغير منها شيء غير الوزن كالبيت الذى أنشده علیه السلام حين قال للعباس بن مرداس أنت القاتل :

أصبح نهى ونهب العبيد د بين الأقرع وعيينة ؟

فإن البيت موزون على قول الشاعر :

وأصبح نهبي ونهب العبيد بين عيينة والأفرع
ولا فرق بين الوضعين إلا كالفرق بين قولك إن طنطا واقعة بين القاهرة
والإسكندرية ، وقولك إنها واقعة بين الإسكندرية والقاهرة ، أو كالفرق بين قولك
إن زيدا يجلس بين بكر و خالد ، وقولك إنه يجلس بين خالد وبكر .
فهل الفرق بين قول الشاعر « ويأتيك بالأخبار من لم تزود »
وقولنا « ويأتيك من لم تزود بالأخبار » هو فرق من هذا القبيل ؟
إن كان الفرق من هذا القبيل فالتبديل ممكن ، وإن لم يكن كذلك فهو
مستحيل أو كالمستحيل .

والمفهوم الذى لا يغيب عن سيد الفصحاء هو أن الممنين مختلفان .
فالمفهوم من قول الشاعر أن الأخبار هي المقصودة ، وأن الشاعر يورد قوله
على سبيل الاستغراب أو التحدث بالفريب الذى لا ينتظر فى الأغلب الأعم أن يكون :
تسمع الخبر الذى تنتظره من مسافر لم تودعه ولم تحفل بسفره ولم تنتظر إياه ، وهذه
هي الغرابة ! وهذا موقع التنويه والاستشهاد .
أما قولنا : « ويأتيك من لم تزود بالأخبار » فهو شيء آخر فى معناه ، أو هو
شيء لا يستشهد به فى الموقع الذى عناه الشاعر .

فنعن لا نزود التاجر المسافر بزاد ولكنه يعود إلينا من السفر بالبضائع والتحف
ولا نستغرب ذلك ، إذ لا وجه للغرابة فى أن يسافر المسافر ولا تزوده ثم يعود إليك
بشيء من الأشياء . أما أن عنيت غرابة الأمر ، وعنيت الأخبار خاصة فلا بد
من التقديم ومن إظهار ما يفيد هذه الغرابة .

وهذا فضلاً عن التباس آخر فى قولنا : « ويأتيك من لم تزود بالأخبار » .
إذ يحتمل أن يفهم السامع أن المقصود : « من لم تزوده أنت بالأخبار » ثم ينتظر
تتمة الكلام .

ولا وجه لهذا الالتباس إذا لم يتبدل موضع الكلام .

فتبديل مواضع الكلمات ممكن إذا نحن لم نحفل بهذا الالتباس وممكن إذا نحن تركنا المعنى الذى من أجله نظم البيت واستحق أن يروى فى مقام الاستشهاد ، وممكن إذا صرفنا النظر عن كل معنى وكل مقصد .

ولسكنه مستحيل أو كالمستحيل إذا أردنا المحافظة على معناه . وهو فرق واضح لا يغيب عن سيد النصحاء كما أسلفنا ، ولهذا رجحنا الرواية الغالبة ولم نكثر لغيرها من الروايات ، ولهذا كان ينبغى للأديب المعقب أن يترث طويلاً قبل أن يحزم ويتحقق أن قولنا « لا يمكن تبديله غير صحيح » فغير الصحيح هو ما قال وما قالته كل رواية توهم أن محمداً عليه السلام قد غاب عنه الفرق الواضح بين الروایتين .

وما دمننا بصدد التعقيب على كتاب « عبقرية محمد » فلنذكر تعقيماً سمعناه من المذيع لطالب نجيب من طلاب الجامعة كان يتحدث عن هذا الكتاب ... فقد أشار إلى كلامنا عن موت إبراهيم بن النبی عليه السلام حيث نقول : « مات ذلك الطفل الصغير ومات ذلك الأمل الكبير : مات كلاهما والأب فى الستين . . . أى صدمة فى ختام العمر ؟ أى أمل فى الحياة ؟ الدين قد تم وهذه الأصرة قد انقطعت ، فليس فى الحياة ما يستقبل وينتظر : كل ما فيها للإشاحة والإدبار » .

ثم عتب الطالب النجيب بما فحواه أن هذا یأس يتنزه عنه مقام الأنبياء . وكل ما نجيب به أن هذا ليس بیأس يتنزه عنه مقام الأنبياء ، وإنما هو علم بأن الحياة قد أصبحت للإشاحة والإدبار ، ومحمد عليه السلام كان يقول « إن معترك المنايا بین الستين والسبعين » فلا یأس فى انتظاره إدبار الحياة بعد الستين .

إنما الیأس الذى يتنزه عنه مقام النبی أن ییأس من أداء الرسالة التى بعث بها إلى الناس ، وهذه قد تمت يوم مات إبراهيم ، فلا یأس فيها ، ولا حرج أن يقبل النبی بعدها على أخراه . وما قلنا عن محمد عليه السلام بعض ما قاله بلسانه الشريف حين قال إن ما به من موت إبراهيم ليهده الجبال . ثم استرجع . وما يكون الاسترجاع إلا أن يذكر الإنسان فى كل عمر أنه تارك الحياة وراجع إلى الله !

الحق المجرد

عجب صديقنا الأستاذ الزيات لابن آدم « المخلوق الوحيد الذي يرى الشيء الواحد بعينه الاثنتين أبيض تارة وأسود أخرى على حسب الصبغ الذي يلونه به الهوى » .

وضرب لذلك أمثلة شتى ، منها أن راديو بارى أذاع منذ ليلتين أن فريقاً من الطلاب الهنود تظاهروا في بمباى فاعترضتهم فئة من الشرطة الإنجليز ففترقوا في شوارع المدينة أبديد بعد أن أصيب نفر منهم بجروح ، ثم عقب المذيع على هذا الخبر بأن الاعتداء على المتظاهرين بالضرب ينافي المدنية ، ويجافي الخلق ، ويصم الذين ارتكبوه بالقسوة الوحشية والبربرية الأثيمة . ثم أعلن المذيع في هذه الإذاعة نفسها أن مليوناً من جنود المحور قد اقتحموا بالدبابات الثقيلة والطائرات المنقضة والسيارات المدرعة منازل ستالينجراد على الروس وفيهم النساء والأطفال والشيخ والمرضى ، فدكوا كل بناء ، وسحقوا كل حي ، وركبوا أشلاء القتلى في الحجلات والطرقات على صورة لم يرها الرءاؤون ولم يروها الراؤون . ثم أخذوا هذا البوق البشرى يهذى بفضل هذا النصر على المدنية ، وينوه بعظيم أثره في مستقبل الإنسانية .

وأتى الأستاذ بأمثلة متعددة في هذا المعنى تؤيد شقاء الإنسانية بين العقل والهوى .

وإنه لشقاء باق لن يزول أبداً ، ولن يزال الهوى يرينا الشيء شيئين واللون لونين ما دمنا نحس ونرى ، وقد

أعبي الهوى كل ذى عقل فلست ترى

إلا صحيحاً له حالات مجنون

وهذا نقص لا ريب فيه .

وقد تناولنا صديقنا الزيات من هذه الناحية فأبرزه في صور الحياة اليومية التي لا يخطئها من يرقبها .

فهل هو نقص لا يوازنه جانب كمال ؟ وهل هي آفة لا عناء فيها لبني آدم ؟ وهل نغير ما طبعنا عليه من هذه الخليقة بما طبعت عليه سائر المخلوقات من توافق وتشابه حالات ؟

مصيبتنا أننا لا نستطيع !

لأن الإنسان لا ينقص إلا من حيث يزيد ، فهو يعرف الخطأ لأنه يعرف الصواب ويختل في هندسته من حيث يتقن النحل هندسته كل الإتقان ، لأنه أعلم بالهندسة من النحل لا لأنه أجهل منه بفنونها وأنواعها . . . فهو يشتري الخطأ بشمن ، لأنه لا يشتري الصواب إلا مخلوطاً به ، مضافاً إليه . نحن نرى الشيء أشياء لأننا نرى .

أما سائر المخلوقات فهي لا ترى إذ تنظر بعينيها ، وإنما الأصح أن يقال إنها تلمس الأشياء بالعين على نحو من الملمس بالأيدى ، فلا تقبل عندها التعدد والاختلاف . وهكذا آدميون الذين يشبهون تلك المخلوقات .

إنهم يلمسون الأمور بأعينهم كما يلمسونها بأيديهم ، ولكنهم لا يرونها متعددة الحالات ، متعددة الألوان ، متعددة الوقع في الخواطر والأهواء ؛ وإن تعددت عندهم قليلاً فهو أقرب تعدد إلى التوحيد .

كنت أقول لبعضهم والألمان يدخلون باريس : إنهم سينهزمون .

وكنت أقول لبعضهم والألمان يشقون في الأراضي الروسية : إنهم

سينهزمون .

فكانوا يقولون : ولكننا نرى أنهم سينتصرون لأنهم منتصرون . . . فأقول لهم :

ما هذا برأى . هذا لمس بالعين . هذا ما تبصرونه كما تبصره كل عين حيوانية تفتح أجفانها ، وإنما الرأى غير هذا . الرأى ما يبصره بالإنهزام وأنت تنظر إلى النصر المموس فإن لم يفدنا الرأى هذه الفائدة فلا ستيرفيه ، ولا حاجة بنا إليه مع وجود العيون والأجفان ، إذ حسبنا بالعيون والأجفان أن تفتحها فليس بها ، ثم لا نفكر ولا نرى خلاف ما تبديه .

وهكذا يبصر الإنسان وجوه الرأى لأنه لا يرى الشيء على حالة واحدة ولا يستوفيه كله في صورة حاضرة .

فهو يبصر وجوه الرأى في الضرب مثلاً لأنه يحسه لذيذاً في حين ومؤملاً في حين ولا يحسه في بعض الأحيان .

يحسه لذيذاً حين يكون هو الضارب ، ويحسه مؤملاً حين يكون هو المضروب ، وليس يحس له لذة ولا ألماً حين لا يكون ضارباً ولا مضروباً ولا شأن له في الخاليتين . ومن العسير عليه جداً أن يعرف ما هو الضرب إذا عرفه على وجه واحد ، ولم يعرفه على شتى الوجوه .

ومن البعيد جداً أن يراه بالحق إن لم يره بالهوى على اختلافه ، فيحبه ويبغضه وينظر إليه بين الحب والبغض ، و « يراه » بعد ذلك مستجمعاً لجميع هذه الوجوه . وهذا هو باب الكمال في تعدد الأهواء وتعدد الحكم على العمل الواحد إذ عمله نحن وإذ عمله الخصوم ، وإذ عمله من ليس من الخصوم ولا من الأصدقاء .

وكل صورة من صور هذه تمام لغيرها ، ولا سبيل إلى التمام فيها بغير هذا التعدد .

يقولون في الصعيد : إن نواتياً سمح مضغاً قوياً في مخزن الخبز الجاف من سفينته فأشفق من نفاذ المؤونة في الطريق وصاح مفضضاً : من هذا الذي يقضم في الخبز قضم الحمار ؟

فقليل له ابنك حسن !

قال : اسم الله عليه ! أهو الذى يقرش هكذا قرش الفوير ؟

والرجل قد صدق بعض الصدق فيما سمع من قضم حمار ومن قرش فوير ، فإن
أكل ابنه من الخبز يسره ولا يؤذيه ، وإن انطلق الغريب عليه يؤذيه ولا يسره .
ويبقى أن يسمع المسافر الذى لا يسمع حماراً ولا فويراً ، ولكنه يسمع الصوتين على
حسب ما عنده من الزاد .

وما أعجز الإنسان أن يتبين حقيقة هذا الصغر وبهذه البساطة ما لم يسمع
من جانب مخزن الخبز صوت حمار وصوت فأر وصوت إنسان .
هذا نقص فى خليقة بنى آدم يؤدى إلى تمام .

وإنما هو نقص دائم إذا وقف حيث هو ولم تجتمع صورته الكثيرة
فى صورة واحدة ، هى أدنى إلى الصدق وأبعد من الهوى وأوسط فى الرأى بين
مختلف الآراء .

وذلك هو النقص الذى يحبه جماعة من أصحاب المذاهب الاجتماعية ويفرضون
دوامه ويحضون على الافتداء به فى فهم التاريخ ، ويريد بهم الشيوعيين .

فهم يجعلون الهوى فرضاً لازماً فى معالجة كل حقيقة من حقائق الحياة .
ويكتبون التاريخ فيذمون من لا يستحق الذم ، ويثنون على من لا يستحق
الثناء ، لأنهم يستوحدون المصلحة الشيوعية ، ويعلنون أن الخروج من هوى المصلحة
فى تقدير الأمور مستحيل .

فأما أنه مستحيل فلا ، لأن الإنسان يعرف الفرق بين صوابه وهواه ، وإن
أحب هواه وآثره على الصواب .

فإذا كانت له قوة خلق تصحب المعرفة غلب الهوى بالجمع بين معرفته وقوة
خلقه ، وأصبحت مصلحته تابعة لما يلزمها من جادة قويمه فى رأيه .

ولكن الشيوعيين لا يفلبون هوى المصلحة ، لأن الخروج منه مستحيل ، وإنما يطلبونه لأن تفليبه نافع لهم فيما يقدرونه ويفسرون به الأمور .

ولا نقول : إن الشيوعيين وحدهم يفلبون الهوى في تفسير التاريخ وتصوير الحقائق ، فهذه خليقة شائعة بين جميع الناس ملحوظة بين أصحاب المذاهب بلا استثناء .

ولكننا نقول : إن الشيوعيين وحدهم هم الذين جعلوا ذلك فرضاً لا مناص منه ولم يجعلوه عيباً يصححونه ويخجلون من إعلانه .

وهذا هو الفارق الكبير بين الرأيين .

فعلينا أن نعترف بالهوى ولا نجعل صنيعه في أفاعيل الأمم والأفراد ، ولكن علينا أن نعالجه ما استطعنا كلما عرفناه واقتدرنا عليه .

وهذا هو الواجب في كل عيب من العيوب ، أياً كان سببه وأياً كان الناظر إليه .

فأذكر أن « برتراند رسل » الفيلسوف الرياضي الباحث الاجتماعي الكبير قد أشار في بعض كتبه بإباحة العلاقات بين الفتيان والفتيات « بغير بنين » لئتم لهم اختبار الحياة الجنسية قبل الاضطرار بتبعاتها ، ولأن المنع رياء ما دامت الإباحة قائمة فعلاً وإن سترت من أعين المجتمع والشرطة .

فأما اختبار الحياة الجنسية فليست الإباحة سبيله الوحيد ، وليس الزواج بعلاقة جنسية وكفى فيكون اختباراً من طريق ذلك الانطلاق .

وأما أن الإباحة مطلوبة ما دامت حاصلة ، فهذا الذي يشبهه عندنا مذهب

الشيوعيين أن الهوى مفروض مادام من عادات بني آدم .

فالسرقه موجودة ولا نعالجها برفع العقوبة عنها ، والسقم الذي يأتي من الطعام موجود ولا نعالجه بتسويق الطعام المسقم للأبدان ؛ وإنما وجود هذه الآفات هو

الذى يدعونا إلى محاربتها واستئصالها ؛ إذ نحن لا نحاربها وهي معدومة غير مكروهة الوجود .

هو الهوى إذن نقص في طبيعة الإنسان تميز به بين المخلوقات لأنه طريقة إلى التمام . فلا نرميه ولا ندخره ، ولكننا نتناوله بضاعة للاستبدال كلما تسنى لنا أن نبدل به بعض الصواب .

وهوى واحد لا يصلح ثمنًا مقبولا في هذه التجارة .

ولكن خمسة أهواء متقابلات هي أصلح الأثمان للمقايضة فيها ، فليس أضمن بأضعاف الهوى من تعدد الأهواء .

أيشقينا ذلك التبديل والاستبدال ؟

نعم لامراء . . . ولكن من الذى قال إننا خلقنا للسعد ؟ ومن الذى قال إن السعادة في استئصال الأهواء ؟ لم يقل ذلك أحد ؛ وإن قاله لم يحفل به سامع ولم تنزل دنياه ماضية في شقائها وسعادتها وهواها .

حول مانكيب

علقت صحيفة « البورص إچيسيان » على ما كتبناه في موضوع الشيوعية فقالت بعد تلخيص رأينا فيها : « ... وأن الأستاذ العقاد ينظر إلى الشيوعية في لون قاتم وهي ما زالت على حسب سياسة ستالين في دور الكشف والظهور ، فلا تعرف على التحقيق إلى أى طريق تسير في تطبيقها العملى بعد تجاربها في السنوات الأخيرة فقد أنشأ نظام الأسرة فيها يتكون ثم المدرسة ثم الأخلاق ثم الاعتراف بتفاوت الدرجات والرجوع أخيراً إلى الدين ، وكل هذا معناه أن الشيوعية الحالية ليست إلا إسماً مسمى وإن هي في حقيقتها إلا اشتراكية مستنيرة » .

وهذا التعليق في رأينا هو أقرب إلى التأييد والتوكيد ، منه إلى المناقضة أو التنفيد .

لأن معناه أن ستالين يخالف الشيوعية التي ننكرها ولا يدين بقواعدها التي بسطها كارل ماركس وشرع في تحقيقها لينين .

ومعناه من جهة أخرى أن الشيوعية في تطبيقها تخالف الشيوعية في أصولها النظرية ، وأنها من أجل ذلك مذهب لا يصلح للتنفيذ في الحياة العملية .

وقد اضطر ستالين فعلاً إلى الاعتراف بتفاوت الدرجات والأجور ، واضطر إلى التسليم للأسرة ببعض الحقوق وقبول الملكية في وضع من الأوضاع ، ثم انتهى خلال الحرب الحاضرة بتعظيم فضيلة الوطنية التي كانت في عرف كارل ماركس وأصحابه لعنة من لعنات الاستغلال ، وحيلة من حيل أصحاب الأموال ، فهو وأعوانه يسمون الحرب الحاضرة بالحرب الوطنية وحرب الدفاع عن الدمار ، لأنهم علموا أن اسم الشيوعية وحدها لا يشجذ همة الشعب إلى النضال ولا يغنى عن نخوة الوطن والعصبية القومية .

فاضطرار الأقطاب الشيوعيين إلى العدول عن بعض قواعدها الأولية يؤيد ما نقول ، ولا ينفي أنها مذهب غير معقول ولا مقبول .

ولكننا مع هذا ندعو إلى الحذر من تصديق كل ما يروى عن التطبيقات الشيوعية في الوقت الحاضر ؛ لأن الوصول إلى حقيقة النظم الروسية اليوم من أصعب الأمور ، ولم يسمح قط لرجل مستقل الرأي منزه عن الغرض بالطواف في أرجاء روسيا على خريته بغير رقيب أو دليل ، وإذا سمح له بالطواف في المواطن البعيدة عن الأسرار والخفايا ، فلا ينقض أسبوع على معاشرته لفرد من الأفراد أو فئة من الفئات إلا أسرع الحاكون بتبديله وإحلال آخر أو آخرين في محله ، حتى لا تنعقد بين السائحين المستقلين وبين أحد من الروسيين صلات وثيقة تطلق عقال الألسنة وتكشف كوامن الصدور .

ولا حاجة بنا بعد هذا وذاك إلى ملاحظات السائحين المستقلين لإدراك هذه الحقائق الغنية عن الدليل ، فحسبنا أن حرية الكتابة مكبوحة في روسيا منذ نيف وعشرين سنة لنعلم أن بواطن الأمور غير ظواهرها وأن رعايا الشيوعيين لا يملكون الإفضاء بما في ضمائرهم لأبناء وطنهم ، فضلا عن الغرباء الطارقين الذين يحاطون بالرقباء والأدلاء من قريب وبعيد .

ولا نزال نذكر الفكاهة التي رويت على لسان الفلاح الروسي حين سمح له بالتحدث إلى العالم الخارجي من محطة الإذاعة العامة على شريطة أن يفوه بكلمة واحدة ولا يزيد عليها ، فكانت كلمته التي جمعت كل ما أراد الإفضاء به إلى العالم الإنساني كله هي : « النجدة ! » ولاذ بعدها بصمت الأموات .

فحسبنا أن المذهب في أصول النظرية غير معقول ، وأن أقطابه لا يقدر ون على تطبيقه إلا بعد الانحراف عنه والتعديل فيه ، وأن الأقوال التي تصل عنه إلى العالم الخارجي لا تخلو من حجر ورقابة ، وهذه كلها حقائق متفق عليها حسبنا كما قلنا أن نعمها لنعلم أن الحذر من تصديق ما يقال هو أقل ما تقابل به تلك الأقوال .

وليست كل التعليقات جداً كهذا التعليق الذي ألعنا إياه من كلام
« البورص إچيسان » .

فهنالك تعليقات الأوشاب !

وهناك تعليقات عبید المعدة !

وهناك تعليقات الماديين الذين يفسرون كل شيء بالماديات !

والأوشاب وعبید المعدة والماديون هي كلمات مرادفة لكلمة الشيوعيين

باعتراف هؤلاء الشيوعيين الفخوريين !

وهؤلاء — أوأذئاب هؤلاء — يقولون إنني لا أكره الشيوعية ولا أكتب

ما أكتب عنها إلا لأنني قبضت من أعدائها خمسة آلاف جنيه للتشهير بها

في بضع مقالات .

ولكني أكتب ما أكتبه اليوم عن الشيوعية منذ كانت الشيوعية ،

أو منذ عشرين سنة على التقريب .

وأكتب عن جميع المذاهب التي تناقض الديمقراطية كما كتبت عن

الشيوعية والشيوعيين .

فما تفسير ذلك ياترى ؟ ولم لا تكون الكراهة هنا كراهة رأى ما دامت

مطردة في جميع الأوقات وعلى جميع المذاهب وبين جميع الأحوال ؟

كلا . لا يمكن أن يفسر كلام إنسان بالرأى والعقيدة في عرف الأوشاب

وعبيد المعدة والمفسرين للتاريخ كله بالماديات .

أفى الدنيا إنسان يحارب رأياً لأنه يؤمن ببطلانه ؟ كيف يكون هذا ؟ وكيف

يكون الإنسان عبداً للمعدة إذن ويكون الرأى محور أقواله ومثار خصوماته ؟

هذا مناقض « للمذهب » في الصميم .

وهو كذلك مناقض « للخطط الحربية » التي أوصى بها ماركس أتباعه علانية

ولم يتورع أن يزيناها لهم في منشوراته على مسمع من الدنيا بأسرها ؛ فهو القاتل :

إن تشويه كل ديمقراطي حسن السمعة واجب مفروض على الدعاة ، وهو الذى سنّ لهم هذه السنة حين أشاع أن « باكونين » جاسوس للروس والنسويين وهو يعلم أنه لطريفة الروس والنسويين !

ومن عقائدهم التى لا يخفونها أن « الحق » المطلق خرافة ليس لها وجود ، وأن ما يسمى حقاً إنما هو جملة المصالح التى تنتفع بها الطبقة الغالبة فى أمة من الأمم ، وأن الكذب العمد على هذا الخدمة « الطبقة » أمر مشروع بل واجب مشكور . فلا عجب إذن أن يقرفنى الأوشاب عبيد الملعدة بما يعهدون فى أنفسهم وفى عقائدهم من الخلائق والأذناس .

بل عندى أنهم حيونى أكبر تحية فى مقدورهم حين رفعوا سعر الرشوة التى أرشأها إلى خمسة آلاف من الجنيهات أجراً مقدوراً لبضع مقالات .

نعم هى أكبر التحيات التى يملكونها وهم يعلمون أن سعرهم جميعاً وأجور مجهوداتهم جميعاً منذ خدموا الشيوعية إلى أن تستغنى الشيوعية عن خدمتهم لن يقارب خمس هذه الآلاف .

فلهم على تحيتهم المفصولة شكر يلائمها .

ولهم فوق ذلك تبرع آخر ينتفعون به فى كل لحظة إن وجدوا السبيل إليه . فإننى لم تبرع لهم بهذه الآلاف الخمسة حينما وجدوها فى مصرف أو بيت أو ثمناً لعقار أو بضاعة أو أسناد تشرى وتباع .

وحينما وجدوا ذلك المال فليكتبوا إلى صاحب الرسالة بموضعه ، ولهم أن أتبع كتابتهم بعد يوم واحد بتحويل صريح يخولهم قبضه حالا مباحاً وفاقاً لكل شرط يقترحونه من شروط القانون .

وليدعوا لى بالخير إذن كما يدعون للرفقاء أجمعين ، فإننى سأعطيهم إن صدقوا ما لم يأخذوه — ولن يأخذوه — من رفيق ! .

ونُدع هذه الأضاحيك ونعود إلى موضوع « المؤلفين والمقترحين » الذى كتبنا عنه فى الرسالة مقالنا الأخير .

فقد وردتنى فى هذا الموضوع رسائل شتى من مؤيدين ومناقشين ، وخير ماوردنى من رسائل التأيد رسالتان إحداهما يقول صاحبها « ا . زين العابدين » : إن كل نسخة من كتاب يقتنيها قارئ مثقف هى رد مطول على أصحاب المقترحات على قلمهم وإن كانوا من ذوى الثقافة والاطلاع .

والأخرى يقول صاحبها « محمد عبد الهادى » : إن رضى المؤلف عما كتب قرائه هو العزاء الذى يرجح بكل جزاء ويغنيه حتى عن الإعجاب والثناء .

ورافقنى لحوى هذه الرسالة على التخصيص لأننى تلقيتها من محض المصادفة فى بريد واحد مع مجلة « ورلد دييجست » الإنجليزية وفى صدرها خطاب معاد لمستر شرشل يتكلم فيه عن « غبطة المؤلفين » ويجعلها — كما يجعل كل غبطة من نوعها — عليها المطامح التى ترتقى إليها آمال الناس فى هذه الحياة .

فليس فى الدنيا — كما يقول — سعادة أسعد من نجاحك فى التوفيق بين موضوع عملك وموضوع سرورك ، أو من اتخاذك العمل سبيلا من سبل الرياضة والرضاء ، وهو يسأل ويطلب فى سؤاله بما خلاصته .

ماذا يعينيك مما يحدث وراء الأفق الذى تمش فيه بعملك وسرورك ؟ ليصنع مجلس النواب ما بدا له ، وليصنع معه مجلس اللوردات مثل هذا الصنيع ، ولتضطرب الأسواق ، وليثر من يشور ، فلا ضير عليك وأنت منزو فى تلك الساعات القلائل عن عالم يساء حكمه أو يساء نظامه .

ثم ينتقل إلى الحديث عن الحرية والتأليف فيرى أن أداة التأليف هى أخف الأدوات مثونة وأقلها كلفة لأنها قلم وصفحات من الورق ، وإن أبقى شئ يبقى من وراء أسداد الزمان والمكان هو الكلمات .

قل إنه عزاء للمؤلفين يخلقونه من الخيال أو يخلق لهم من وقائع الأيام ، فالهمم أنه قد خلق وأنه قد نزل من نفوسهم منزل العزاء الصحيح .

السلفية والمستقبلية

عن الأديب الفاضل الأستاذ الحوفي بالرد على الالخط الذي يلوكة باسم التجديد ذلك الكاتب الذي يكتب ليحقد ، ويحقد ليكتب ، ويدين بالمذاهب ليربح منها ولا يتكلف لها كلفة في العمل أوفى المال .

فهو يشتري الأرض ، ويتجر بتربية الخنازير ، ويسخر العمال ويتكلم عن الاشتراكية التي تحرم الملك وتحارب سلطان رأس المال .

وهو يعيش من التقدير عيشة القروى الوسطى فى الأحياء العتيقة ويتكلم عن التجديد والمعيشة العصرية .

وهو ينهى الحضارة الأسىوية وإنه لنى طواياه يذ كرنا بخلائق البدو المغول فى البرارى السىيرية .

ومن لفظه بالتجديد ذلك الالخط الذى لا يفهمه ، قوله الذى رد عليه الأستاذ الحوفي وهو : « التفت إلى عبارة قالها الأستاذ العقاد بشأن الإشتراكيين فى مصر لها مناسبة هنا . إذ هم يدعون على غير ما يجب إلى اللغة العامية ، وقد حسب عليهم هذه الدعوة فى فاتحة ردائلهم ، لأنه هو يعتز بفضيلة اللغة الفصحى ، ويؤلف عن خالد بن الوليد أو حسان بن ثابت ، ولكنه غفل عن التفسير لهذه الظاهرة الاجتماعية ، وهى أن الإشتراكيين شعبيون يمتازون بالروح الشعبى ويعملون لتكوينه ، وهم لهذا السبب أيضاً مستقبليون وليسوا سلفيين ... فى حين أنه هو سلفى الذهن فى لغته وأسلوبه وتفكيره وسلوكه ... » .

وهذا كلام عن السلفية والمستقبلية يخاوى العبارة لا يعقل قائله ما يقول : لأن الكتابة فى الموضوعات التاريخية ليست هى مقياس السلفية أو المستقبلية ، إلا كان المؤرخون كلهم سلفيين لأنهم ما كتبوا ولن يكتبوا فى غير العصور السالفة

وفى غير الماضى البعيد أو القريب ، وإنما المقياس الصحيح هو طريقة الكتابة
فى الموضوعات التاريخية والأبطال التاريخيين ، وبهذا المقياس يحسب الإنسان سلفياً
رجعياً ولو كتب عن المستقبل الذى يأتى بعد مئات السنين . إذ هو قد يكتب عنه
بروح الجهل القديم والعصبية الرجعية ، وهى العصبية التى عشت فى دماغ ذلك الكاتب
الببغاوى فلا ينساها فى موضوع قديم ولا حديث .

ومن أصدق المقاييس للمستقبلية الإيمان بالحرية الفردية والتبعة الشخصية .
فليس فى التاريخ الإنسانى كله مقياس للتقدم أصدق ولا أوضح ولا أكثر
اطراداً فى جميع الأحوال من مقياس حرية الفرد بين أمة وأمة ، وبين زمان وزمان ،
و بين خليفة وخليفة ، و بين تفكير وتفكير .
فإذا قابلت بين عصرين اثنين فأرقاهما ولا ريب هو العصر الذى يعظم فيه نصيب
الفرد من الحرية والتبعة الشخصية .

وإذا قابلت بين أمتين فى عصر واحد فأرقاهما ولا ريب هى التى تدين بالنظم
القائمة على تقرير حرية الفرد وتحمله التبعة فى السياسة والأخلاق .
وهذا الفارق الحاسم هو أيضاً مقياس الفارق بين العالم والجاهل والرفيع والوضيع
والرجل والطفل والرئيس والمرؤوس وكل فاضل وكل منفضول .

ولهذا كنا نحن مستقبليين لأننا ندين بمذاهب الحرية الفردية ولا ندين بمذاهب
الفاشية والشيوعية ، ولا نرى فى واحدة منها خيراً لبنى الإنسان . وقد حاربنا الفاشية والنازية
فى الوقت الذى كان فيه الببغاوات من أمثال ذلك الكاتب يطباون لها ويزسرون ويسجدون
لأبطالها ويركعون ، وعشنا وعاش الناس حتى رأوا ورأينا مصداق ما أنذرنا به وأكدناه
وقررناه . وسنرى عن قريب مصداق ما أنذرنا به وأكدناه وقررناه فى أمر الشيوعية
الماركسية على الخصوص ، لأنها هى المذهب الذى نحن على يقين من سوء مصيره وسوء
وقعه وسوء فهمه بين أديائه ، وليس هو الاشتراكية فى صورتها الحرة المذهبة كما يغالط
ذلك المكاتب الببغاوى فى التسمية وهو يعتمد أو لا يعتمد التغليب والتخليط .

وقد بدرت البوادر التي لاخفاء بها فسلم الشرقيون والغربيون أن سياسة بطرس الأكبر — لاسياسة المستقبل — هي التي يترنم بها الببغاوات في هذا البلد وفي غيره من البلدان ، وسيرون المزيد والمزيد من دلائل الرجوع إلى القديم في كل مسألة من مسائل الخلاف بين السلفيين والمستقبليين .

ومن مقاييس المستقبل التي لا تخطيء ولا تكذب في الدلالة على الوجهة التاريخية العامة مقياس التعاون بين الدول ، أوالتعاون بين الطبقات ، أوالتعاون بين الأفراد ، فإن هذا التعاون ملحوظ الخطوات في السياسة الدولية من الزمن القديم إلى الزمن الحديث ، وهو كذلك ملحوظ الخطوات في المعاملات التي تشيع بين أبناء الوطن الواحد وسيكون له الشأن الأكبر في علاج مشكلات الاجتماع والاقتصاد على توالى السنين . وبهذا المقياس — بعد مقياس الحرية الفردية — تعتبر الشيوعية من المذاهب الرجعية التي ترجع بنا إلى سيادة الطبقة الواحدة وإن كانت تزعم أنها طبقة وحيدة وأنها هي طبقة الصناع والأجراء . فسيادة الطبقة الواحدة أقدم الصور الاجتماعية التي عرفها الناس ، والشيوعية لا تغير في الأمر غير عنوان الطبقة ... إن صح ما تدعيه .

وأسخف السخف قول ذلك الكاتب الببغاوى إن الشيوعيين « يفضلون اللغة العامية لأنهم شعبيون مستقبليون » . ومصيبة الدنيا أن تحشو هذه الببغاوات أفواهها بما تسميه تفسير الظواهر الاجتماعية وهي لا تفسر تحت آنافها ما تسمعه بالآذان وتبصره بالعيون . فاللغة العامية لغة الجهل والجهلاء وليست بلغة الشعبين ولا من يحبون الخير للشعوب .

لأن الفنى الجاهل يتكلم اللغة العامية ولا يقرأ اللغة الفصحى ولا يمتاز بفهمها على الفقراء .

ولأن الفقير المتعلم يفهم الفصحى ويكتبها ، كما يفهمها سائر المتعلمين من العلية أو السواد .

فأعداء الشعب حقاً هم أولئك الذين يفرضون عليه الجهل ضريبة لازب ولا يحسبونه في يوم من الأيام صاعداً من حضيض الجهل إلى طبقة المعرفة والثقافة .

وأصدقاء الشعب حقاً هم الذين يفتحون له أبواب المزايا العالية ويسوون بينه وبين القادرين على التعلم والمتكلمين بلغة المتعلمين .

والمسألة هنا — أيتها المبعأوات التي تفسر الظواهر الاجتماعية — ليست مسألة شعبيين وطلقات وأجور رؤوس أموال كما يهذى كارل ماركس وأتباعه المفتونون .

وإنما هي مسألة الفارق السرمدي بين المعيشة اليومية وبين الحياة الإنسانية الباقية على اختلاف الأمم وتعاقب العصور .

فكل ماهو من باب القيم الإنسانية الباقية فلا مناص له من تعبير غير تعبير السوق والبيت وكلمات التسلية والاستلقاء ، ولو أجبرنا الناس جميعاً في هذه الساعة على الكلام بالعامية دون غيرها لما استطاعوا أن يتجنبوا اللغة الخاصة . والمصطلحات الخاصة والتراكيب الخاصة سنة واحدة حين يكتبون في الطب أو الرياضة العليا أو الكيمياء أو القانون ، ولما كان عسيراً عليهم أشد العسر أن يكتبوا بالعامية مذهباً كذهب كانت أو مذهب لـبروزو أو قصيدة كقصائد المتنبي وبيرون وشكسبير .

فإذا كانت اللغة الخاصة لازمة للمتعلم على كل حال لاستيفاء علم الطب أو علوم الرياضة أو علوم القانون فلماذا تحرم عليه لاستيفاء علوم الأدب والقدرة على التعبير الذي لا يتجاوز حدود اليوم ويصاحب الأمم الإنسانية عدة أجيال ؟ ومن قال إن الإنسان يستخدم لغة واحدة حين يساوم على بطيخة أو حين يغسل القدور ويخراط الملوخية ، وحين يتكلم عن غبطة النفس بالربيع وسمو الأمل بالحب ونبل الفداء في سبيل المثل العليا ؟ .

ما هذا الولع بالتسفل وهذا الإنكار لكل ارتفاع ؟ ما هذا التمرغ في كل وضيع وهذا الحرّد الذي لا يطاق على كل شريف رفيع ؟ .

فاللغات الفصحى لم تحفظ حتى اليوم لأن الأغنياء وأصحاب رؤوس الأموال يتكلمونها في البيت والسوق ، ولم تحفظ حتى اليوم لأنها مزية طبقة من الطبقات الاجتماعية أو مزية الأغنياء القادرين على التعليم ، فإن أغنى الأغنياء كثيراً ما كانوا من أضعف المعبرين ، وأفصح الفصحاء كثيراً ما كانوا من الفقراء والمعدمين . وإنما اختلفت اللهجتان على مدى الزمن بضرورة الاختلاف بين حياة البيت والسوق وحياة المعرفة والتهذيب التي تتجاوز حاجة اليوم إلى حاجة الأجيال .

وإنما الحق على كل شريف رفيع هو الذي يسول للبغاوات أن يحاربوا اللغة الفصحى باسم الشعبية والشعبية منهم براء .

والمرجع بعد إلى الذوق والشعور وخصب الخيال ، وهي ملكات حرمتها الشيوعية وذووها من كارل ماركس إلى أذنا به الذين لا يفقهون ما يقول ، ولو فقهوه لما عظم شأنهم بين شئون النفوس والعقول .

في مصر فلسفة

نعم في مصر فلسفة .

ونحمد الله على ذلك كما حمد فردريك الكبير ربه على أن في برلين قضاء .
ولكننا نحن أولى بالحمد من فردريك الكبير ، لأن القضاء العادل ضرورة
من ضرورات الحياة الاجتماعية يتفقدها الناس إذا فقدوها ، ويجدونها إذا طال
تفقدها ، وكان بهم صلاح لوجودها .

أما الفلسفة فلا يبحث عنها من يفقدها ، لأن من يفقدها يجهلها ولا يحفل بها ،
وقد يسخر منها إذا سمع بذكرها ، وقد يتفق أصدقاؤها وأعداؤها على أنها نافلة من
النوافل وزيادة من الزيادات ، وإن قال الأصدقاء إنها نافلة الكمال ولا غنى عن
الكمال ، وزيادة الفضل ولا تطيب للفاضلين حياة الفضولين .

فإذا كان القضاء العادل ضرورة محسوسة فصناعة الفلسفة ليست بضرورة
من ضرورات المعاش ، أوهى على الأقل ليست من الضرورات المحسوسات : تلك
ضرورة وطن وزمن ؛ وهذه ضرورة لا يشعر بها الإنسان إلا إذا تجاوز نطاق
الأوطان وأصبح نطاقه الكون كله ، في كل زمان .

أوهى العلم الكلى كما قال المعلم الثانى أبو نصر الفارابى : « فإن العلوم منها
جزئية ومنها كلية ، والعلوم الجزئية هى التى موضوعاتها بعض الموجودات أو بعض
الموهومات . . . مثل علم الطبيعة فإنه ينظر فى بعض الموجودات وهو الجسم من جهة
ما يتحرك ويتغير ويسكن عن الحركة ، ومن جهة ما له مبادئ ذلك ولواحقه . . .
أما العلم الكلى فهو الذى ينظر فى الشئ العام لجميع الموجودات مثل الوجود
والوحدة ، وفى أنواعه ولواحقه ، وفى الأشياء التى لا تعرض بالتخصيص لشئ شئ
من موضوعات العلوم الجزئية مثل التقدم والتأخر والقوة والفعل والتام والناقص

وما يجري مجرى هذه ، وفي المبدأ المشترك لجميع الموجودات ، وهو الشيء الذى ينبغى أن يسمى باسم الله جل جلاله . . . لأن الله مبدأ الموجود المطلق لا موجود دون موجود . فالقسم الذى يشتمل منه على إعطاء مبدأ الموجود ينبغى أن يكون هو العلم الإلهى ، لأن هذه المعانى ليست خاصة بالطبيعيات بل هى أعلى من الطبيعيات عموماً فهذا العلم أعلم من علم الطبيعة ، وواجب أن يسمى علم ما بعد الطبيعة . . . »

وكلام صاحبنا الفارابى على تركيبته العربية أو عربيته التركية كلام صحيح فى التعريف بفضل الفلسفة أو البحث فيما وراء المادة وما وراء الزمان والمكان ، ولكننا بعد ما قدمناه فى موقع الفلسفة من الضرورة نعود فنقول : إنها ليست من البعد عن حياتنا الفردية أو حياتنا الاجتماعية بحيث تخرج من عالم الطبيعة إلى ما وراءها ، وإن الإنسان ما عاش ولن يعيش بغير فلسفة حياة منذ بحث فى العلاقة بينه وبين العالم المنظور والعالم المحجوب ، ومرحلة الحياة كما قلنا فى بعض كتبنا الحديثة : « كجميع المراحل التى نقطعها من مكان إلى مكان ، لا تركب القطار حتى تحصل على التذكرة ، ولا تحصل على التذكرة حتى تعرف الغاية التى تسير إليها . غاية ما هنالك من فرق بين راكبين أن أحدهما يقرأ التذكرة والثانى لا يقرأها ، أو أن أحدهما يؤدي ثمنها من ماله والثانى يؤدي له الثمن من مال غيره . . . »

والعجب أن بعض الفضلاء من طلاب الحقيقة لا ينظرون إلى الفلسفة هذه النظرة ، ولا يحجمون عن نعتها باللغو الفارغ والهذر الذى ليس وراءه طائل ، وكذلك فعل الكاتب النزيه الأستاذ نقولا حداد حين جرى البحث على صفحات (الرسالة) عن وحدة الوجود ، فضرب المثل على سخف المذاهب الفلسفية القديمة بقول فيثاغورس إن العدد هو سر الوجود ، وإن النسبة بين الأشياء هى نسبة بين أعداد .

قال فيثاغورس ذلك قبل خمسة وعشرين قرناً ، فكان فرضه هذا أقرب إلى الصدق من فروض علمية كثيرة فتن بها الناس إلى سنوات .

وقاله فيثاغورس حين رأى أن الأوصاف كلها قد تفارق الموجودات من لون

أو لمس أو صلابة أوليونة أو وزن أو ما شابه هذه الأعراض الكثيرة إلا العدد ؛ فإنه ملازم لكل موجود ، فرداً كان أو أكثر من فرد ، وكاملاً كان أو غير كامل وأن الفروق بين الأشياء هي فروق بين تركيب وتركيب أو فروق بين نسب الأعداد وأن الكون كله « دور موسيقى » هائل يدور على قياس منسجم كما يدير العازف الماهر ألحان الفناء .

وأنشد الكون ألحانه التي لأعداد لها ، وتوالت الفترات التي نعدّها نحن بالسنوات والقرون ، وظهر اليوم للباحثين أن الأجسام نسب بين أعداد ، وأن الفارق بينها فارق في هذه النسب دون غيرها ، وأن التناسق في هذه النسب أصدق من أجرام المادة للموسة باليدين ، وأن الأصح في تركيب الذرة أن يقال إنه « عددي » لأنه « مادي » ملموس .

وإذا قال فيثاغورس هذه المقالة قبل خمسة وعشرين قرناً ، فليس من حقه أن توصف مقالته بالفراغ وهي أَمْلاً من فروض العلماء بعده في معنى الوجود وفوارق الأجسام ، وهي على أضعف الأحوال أدق من قول بعض العلماء إن أصل المادة أثير .

وكان الفلاسفة يبحثون في العقل والمادة من عهد الفراعنة إلى عهد اليونان إلى عهد العرب إلى عهد الأوربيين الحديثين .

يسأل سائل : أهنا محدثان أو قديمان ؟

ويسأل آخر : وإذا كان محدثين فمن الذي أحدثهما ؟

ويسأل غيرها : وإذا كانا قديمين فكيف يتفق قديمان ليس لواحد منهما

بداية ولا نهاية ؟

ويعود هذا السائل أو ذاك فيقول : وإذا كان أحدهما سابقاً للآخر وموجداً

له فأيهما الأول وأيهما الثاني في ترتيب الوجود ؟

ويفترق المجيبون فيقول فريق منهم : إن الحيوان ظهر بعد الجماد وإن

الإنسان ظاهر بعد الحيوان ، فالمادة إذن أسبق من العقل في الترتيب .
ويقول فريق آخر : إن فاقد الشيء لا يعطيه ، وإن العقل أشرف من المادة ،
فهى لا تخلقه وهو أولى بأن يخلقها ويسبقها في الوجود على الأقل سبق العلة للمعلول .
أكلام فارغ هذا ؟

أهو كلام لا يعنيننا ولا يدخل في حسابنا ؟

كلا ... لأن التفسير المادى للتاريخ مذهب عملى في الحياة الاجتماعية قام على
القول بأن المادة هى القديمة وأن العقل هو الحديث ، وتوطدت عليه دعوة « كارل
ماركس » التى فعلت بعد ذلك الأفاعيل فى مجرى السياسة العالمية وفى مجرى العلاقة
بين الطبقات ، ولو استطاع فيلسوف أن يقنع الإمام وأتباعه بقدّم العقل وحدوث
المادة لتغير تاريخ الكرة الأرضية وتغيرت نظرات الملايين من الناس إلى الحياة .
فهذه الصناعة التى تسمى بالفلسفة لا تغادر الطبيعة كل المغادرة ولا تنطلق منها
إلى ما وراءها بغير رجعة إلينا فى حياة الفناء والكساء .

وإهمال هذه الصناعة غير مأمون على مهملها ، لأن الفرق بين الفلسفة الصالحة
والفلسفة الطالحة قد يكون فرقاً بين ثورة واستقرار ، أو بين حرب وسلام ، أو بين
هداية وضلال .

ونحن حين نذيع البشارة بقيام الفلسفة فى مصر لا نذيع بشارة فى سموات الخيال
ولا ننسى الذين يعيشون ويعلمون أنهم يعيشون لأنهم يأكلون ويشربون ويلبسون ،
أو لأنهم لا يطلبون من هذا الوجود مطلباً غير المأكل والمشرب واللباس .

نعم فى مصر فلسفة .

نعم وفيها عناية بالكتب الفلسفية .

وآية ذلك أننا تلقينا فى عام واحد نحو عشرين رسالة فى المباحث الفلسفية

وما إليها ، وعلمنا أنها تقرأ فى بيئة المتعلمين الذين يؤدون الامتحان المدرسى وتقرأ
فى بيئة المطالعين الذين يقتنعون بالاطلاع .

من هذه الرسائل القيمة رسالة للأستاذ الجليل مصطفى عبد الرازق باشا عن فيلسوف العرب والمعلم الثانى والشاعر الحكيم وابن الهيثم وابن تيمية ، فيها أوفى تعريف ينال بمثل هذا الإيجاز .

ومنها كتابا الأسرة والمجتمع والمسئولية والجزاء للدكتور على عبد الواحد وفى أستاذ علم الاجتماع بكلية الآداب ، وقد نوهنا بالكتاب الأول فى (الرسالة) وثانيهما فى طبقة الأول من حيث الإفادة والتحقيق .

ومنها كتب ثلاثة فى « الفلسفة الرواقية » وسيرة الإمام محمد عبده ، وشخصيات ومذاهب فلسفية للدكتور عثمان أمين ، وأولها أوفى كتاب بالعربية فى موضوعه ، ويضارع خيرة الكتب الأوربية فى هذا الموضوع ، وقد أنصف الأستاذ الإمام فى سيرته الوجيزة ، وصحح أوهاماً شائعة فى الشخصيات والمذاهب الفلسفية ، وأغنى المتطلعين إلى هذه البحوث عن كثير من المراجعات .

ومنها التعليم عند القابسى للدكتور الأهوانى ، وهو بيان لفن من الفنون كان المظنون أن العرب أهملوه ، فآلم الدكتور بتاريخه وشرح آراء القابسى فيه .

ومنها كتاب التنبؤ بالغيب عند مفسكرى الإسلام ، وكتاب الشعرانى إمام التصوف فى عصره ، وكتاب الأحلام للدكتور توفيق الطويل مدرس الفلسفة بجامعة فاروق الأول ، وكلها نمط واحد فى حسن التقسيم وتقرير المعلومات وفطنة التعقيب .

وظهرت إلى جانب هذه الكتب القيمة والرسائل المسعفة مجلة مقصورة على علم النفس للأستاذين يوسف مراد ومصطفى زيور تعنى بأشرف البحوث المتخيرة فى موضوعها ، وتشغل مكاناً لم يكن بالجميل أن يفرغ بعد الآن فى اللغة العربية .

ويجب أن نقرر هنا أننا أحصينا ما رأيناه ، ولم نحصى كل ما صدر للجسمية الفلسفية أو لغيرها من دراسات الفلسفة والتصوف وعلم النفس وما إليها .

وبعض هذا يكفل للمباحث الفلسفية حيزاً موقراً فى هذا البلد ويجيز لنا أن نقول : إن مصر فلسفة ، وإنها بشارة تذاع ، لأنها بعض الأدلة على انتقال المصريين

من عالم الضرورة إلى عالم الحرية والاختيار ، ومن أسر الحاجة التي لا تخلو من عبودية إلى شرف الكماليات التي لا تخلو من غزوة وارتفاع .

وقد وددنا لو استطعنا أن نبسط القول في كل كتاب من هذه المجموعة النفيسة لولا أنها حرب خاطفة تقابل بإشارات خاطفة ، وإذا بلغ بأصحاب الفلسفة أن يشكو الناس سرعتهم ونشاطهم ، فتلك علامة خير وحجة على من يحسبون الفلسفة قرينة للدرعة والركون إلى السكون .

لكن نشاطهم هذا يغريني باقتراح عليهم أوحاه إلى حديث مع أستاذ الجليل وكاشف أرسطو للعرب في هذا الزمان العلامة الكبير أحمد لطفي السيد باشا مد الله في عمره وأدام به النفع والمهداية .

فالأستاذ قد ترجم لأرسطو كتاب الأخلاق وكتاب الكون والفساد وكتاب السياسة ، وينوى أن يترجم له كتاب الروح أو كتاب ما بعد الطبيعة .

وما ترجمه الأستاذ الجليل هو أصح ما نقل عن المعلم الأول إلى اللغة العربية ، وقرين في الصحة والوضوح لأفضل الترجمات في اللغات الأوروبية .

ولكن لا يزال الغلط البالغ محيطاً بالمنقولات الأخرى عن أرسطو منذ تصدى له النساطرة والإسراييليون الأندلسيون ، لأن الجلة من أولئك المترجمين كانوا يجهلون معاني الفلسفة ويجهلون دقائق العربية ، ولا ندري الآن مبلغ علمهم باليونانية ، وليس أولى بتصحيح أغلاطهم من عصرنا هذا الذي تيسرت فيه مراجع الفلسفة اليونانية وتيسرت فيه العناية بها والترجمة عنها .

وقد خطر لي أن ترجمة أرسطو وأفلاطون عسيرة على الفرد إذا استقل بها ، ميسرة للجماعة إذا تعاونت عليها ، فماذا على شبابنا الفضلاء المتفرغين للفلسفة بأنواعها لو تقاسموا بينهم آثار الحكيمين جميعاً ففرغوا منها في عام واحد أو عامين ؟

إن في أرسطو وأفلاطون لما يصلح العقول ويقوم التفكير حتى في هذا الزمان وما تباعد فيه الخلاف بين آرائهما وآراء عصرنا حقيق بالدراسة كتلك الآراء الخالدة

التي لم يطرأ عليها الخلف والتغيير ، لأن دراسته دراسة لعقل الإنسان ، وهو موضوع الدراسة في كل أوان .

وعمل الجمعية الفلسفية ناقص إذا بقيت اللغة العربية بين لغات الحضارة خلواً من ترجمة صحيحة للحكيم الخالدين ، وظننا بها أنها قادرة على التمام .

وطلب التمام على من يستطيعه فرض عين في لغة الحكماء ، وهي هنا قريبة من لغة المتصوفة ولغة الفقهاء .

الفلسفة مأثونة

« أتمن الله على الخطر ؟ ... إن الفلسفة خطر على أصحابها وخطر على عقول العامة ، لأنها مازالت منذ كانت تثير الظنون وتعرض المشتغلين بها للقليل والقال .. » .

قرأت هذا في كتاب غفل من الإمضاء ، فكان في ذلك بعض الدليل على أن اتهام الفلسفة بالخطر في زماننا هذا هو الخطر الذي يستتر منه الناس .

وأبادر فأقول لصاحب الخطاب ومن على رأيه إن الكتب الفلسفية التي أشرت إليها في مقالتي السابق بالرسالة ليست من الكتب التي يختلف فيها قولان ، لأنها تتناول المباحث التي يتفق على دراستها رجال الدين ورجال العلم ولا يتخرج من قراءتها أصحاب رأي من الآراء . ونحن مع هذا في زمان غير الزمان الذي كان يخشى فيه على الفلاسفة والمتفلسفين .

وبودي أن أقول بعد هذا وذاك إن الفلسفة مظلومة في تلك الأزمنة التي كانت تتخذ فيها ذريعة للتشكيك بمن أصابهم التشكيك من جرائها أو من جراء الانتساب إليها . فقد ظاموها والله حين أصابوا باسمها من أصابوه ، فإنما كانوا يحسدون الفيلسوف على مكانة سرعية أو يبعضونه لعله ظاهرة أو خفية ، فيظامونه ويظامون الفلاسفة معه ، ويجهل الأمر من يجهله فيقول : إن هؤلاء الظالمين منصفون لأنهم عاقبوا من يستحق العقاب ولم يأخذوه بغير جريمة ولم يمتثلوا عليه الذنوب ! .

ولو كانت الفلسفة هي العلة الصادقة لأصابت النكبات كل فيلسوف يبحث فيما وراء الطبيعة ويتصدى للكلام في أصل الوجود أو أصول الموجودات . ولكنهم لم ينكبوا من الفلاسفة في الواقع إلا من كان ذا منزلة محسودة ومقام ملحوظ وإلا من دخل معهم في مشكلات السياسة ومطامع الرئاسة ، أو كانت لهم عنده ترة يتحملون الأسباب لمجازاته عليها ، فيرجعون بها إلى هذه الفلسفة المسكينة ، وهي غنية بالعلل والأسباب ! .

وإلا فما بالهم لم ينكبوا الكندي والفارابي ونكبوا ابن سينا الوزير وابن رشد
قاضي القضاة ؟ .

فالكندي كان رجلاً ميسور الحال موفور المال ولكنه اعتزل الناس ولم يشترك
معه في مطامع الرئاسة فتركوه يتفلسف كما يشاء ، وكان قصارى ما أصابه من ألسنتهم
أنهم تندروا ببخله وزيفوا الأحاديث عن عشقه وغرامه ، وسلم له رأسه إلا مما سرى
إليه — فيما قيل — من وجع في الركبة قد استعصى على العلاج .
والفارابي نظر إلى محيط السموات وأعرض عن الأرض ومن عليها وقال
في رياضته الهندسية ورياضته النفسية :

وما نحن إلا خطوط وقع . . . بن على نقطة وقع مستوفز
محيط السموات أولى بنا فقيم التزاحم في المركز !
فقالوا له : دونك وما تشتهي من محيط السموات ، ودعنا وما نتزاحم عليه
من هذه المراكز والنقاط ! .

أما ابن سينا فقد زج بنفسه بين المتنازعين من الأمراء والرؤساء ، فزجوه في السجن
وأجأوه إلى النفي وضيقوا عليه المسالك وعلموه طلب السلامة في زوايا الإهمال .
قال تلميذه ومريده أبو عبيد الجوزجاني « ثم سألوه تقلد الوزارة فتقلدها .
ثم اتفق تشويش العسكر عليه وإشفاقهم منه على أنفسهم ، فكبسوا داره وأخذوه
إلى الحبس وأغاروا على أسبابه وأخذوا ما كان يملكه وسألوا الأمير قتله فامتنع منه ،
وعدل إلى نفيه عن الدولة طلباً لمرضاتهم ، فتوارى في دار الشيخ أبي سعد ... »
إلى أن عاد .

فالعلة في الأرض لا في السماء .

والمصيبة من « الطبيعة » لا مما وراء الطبيعة .

وآفة الرجل أنه أراد أن يكبح السلاح بالحكمة ، ولو استطاع ذلك لاستطاعه
أرسطو في سياسة الأسكندر . . . وهيهات .

ثم مات الرجل في داره حينما زالت عنه رهبة السلطان ولم يمت في الحبس كما وهم بعضهم في قول بعض حاسديه :

رأيت ابن سينا يعادى الرجا ل وبالحبس مات أخس المات
فلم يشف ما ناله بالشفاء ولم ينج من موته بالنجاة
وإنما كان « الحبس » في اصطلاحهم بديلا من داء « الإمساك » في اصطلاح
هذا الزمان ! .

وقد صدق هذا الحاسد الشامت حين رد البلية كلها إلى معاداة الرجال لا إلى
معاداة الله أو معاداة رسل الله .

وابن رشد جمع على نفسه بين حسد الوجاهة والنباهة وبين سحق العظماء
ونكاية ذوى السلطان .

شرح كتاب الحيوان لأرسطو وهذبه وقال فيه عند ذكره الزرافة « رأيتها عند
ملك البربر » ... وكان إذا حضر مجلس المنصور وتكلم معه أو بحث عنده في شيء
من العلوم يخاطب المنصور بأن يقول : تسمع يا أخى ! ولا يخاطبه بألقاب الملوك والخلفاء .
فجراه « ملك البربر » دقة بدقة ونكاية بنكاية ، وراه يستكثر عليه أن ينسب
إلى العرب أو يسمى بخليفة المساهين فقال له : بل أنت الدخيل على أمة العرب وملة
الإسلام فيما صح لدينا من الأنساب التى لا تقبل الكلام ! .
وهكذا أصبحنا « خالصين » ! ...

وأصبح « محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن أحمد » يستتر وراء هذه الأسماء
سلسلة من أسماء بنى إسرائيل ، ونفوه إلى محلهم في جوار قرطبة لأنه دسيسة
على المسلمين من سلالة اليهود الذين يفتنون أتباع محمد بفلسفة اليونان ! .

ولولا تلك المقابلة فى الإساءة والانتقام لجاز أن يلصق هذا الظن بالرجل
وإن لم يقم عليه دليل أو قام الدليل على نقيضه ، لأن أعدى أعدائه الشامتين به
فى نكبته قد نفى هذه الدسيسة عن نسبه وشهد لجده بالتقوى والصلاح حيث قال :

لم تلزم الرشد يا ابن رشد لما علا في الزمان جدك
وكنت في الدين ذاء رياء ما هكذا كان فيه جدك !

ومن قائل هذه الشهادة في جده ؟ هو الحاج أبو الحسين بن جبير الذي جعل
من أهاجي ابن رشد أغنية يرتلها ويعيد ترتيلها على اختلاف القوافي والأوزان . فقال
في تلك الأهاجي الكثيرة :

الآن قد أيقن ابن رشد أن تواليفه توالف
وقال :

كان ابن رشد في مدى غيه قد وضع الدين بأوضاعه
وقال يحرض على قتله :

وقد كان لل سيف اشتياق إليهم ولكن مقام الخزي للنفس أقتل
ولو رجعنا إلى سر هذه البلية كلها لوجدنا أن « علا في الزمان جدك » هي تفسير
هذه الأبيات أو تفسير تلك النكبات ، وإن الزرافة التي عند « ملك البربر » هي التي
أدخلت نسب الرجل في سلالة بني إسرائيل .
فالخطر يا صاحبي على الفلاسفة من الدنيا لا من الدين ، ومن انخاسة الحاسدين
لا من العامة الغافلين .

وما خطب العامة والفلاسفة وهي لا تصل إليهم وهم لا يصلون إليها ولا تنعقد
بينهم وبينها علاقة نظر ولا علاقة سماع ؟

فإذا تحرك العامة فابحث عن « الصلة » بينهم وبين القضية فلن تجدوها
في أكثر الأحوال إلا نكاية حاسد أو وشاية جاحد أو حجة ظالم يستر ظاهره للفلسفة
بدعوى الانصاف للدين ، وإن الدين منه لبراء .

واعلم يا صاحبي أن العامة في كل زمان وحش محبوس لا ينال فريسته إلا بعد
تحرش وانطلاق ، وإن الذين يحرشونه ويطلقونه هم أصحاب الدنيا وعروضها وليسوا
بأصحاب العقائد وفروضها . إلا في النادر الذي يحسب من الاستثناء .

وما أصدق المعري حين قال متسائلاً : ما للناس ولي وقد تركت لهم دنياهم !
فإنه قد لمس الداء في أصوله حين حسب أن ترك الدنيا يتركه في أمان ،
وقد تركه فعلاً في أمان إلا من القليل والقال ، وهو أهون ما يمر بالرجال .
تفلسف يا صاحبي كما تشاء ودع الناس يتفلسفون كما يشاءون فما دامت فلسفتك
لا تصيب أحداً في نياه ولا تفيد أحداً في دعواه ، فأنت ظافر برضوانهم وظافر
عندهم برضوان .

أما إذا أصبت دنياهم ونقضت دعواهم فيأويلك إذاً من الأرض والسماء ،
ويأسوء ما تلقاه من العلية والدهاء ، ولوزكاك النبيون وشهد لك الأولياء ، ولزمت
الصلاة والدعاء في كل صباح ومساء .

ومالك تذكر الخطر على الفلاسفة ولا تذكر الخطر على حماة الدين من الأنبياء
والمرسايين ؟ فهم الذين عاموا الناس الأديان وهم الذين يشار الناس باسمهم حين يثارون
على الفلاسفة ومن يزعمونهم من أهل النكران والجحود ، ولو وزنت حظوظهم
من البلاء والاستهزاء ووزنت معها حظوظ الفلاسفة والمتفلسفين ، لما حارت « شركات
التأمين » بين أصحاب اليسار وأصحاب اليمين .

هي الدنيا يا صاحبي تظلم الدين كما تظلم الفلسفة بما تدعيه عليه وعليها ، وأحسنني
قد باكرت هذا المعنى القديم حين قلت قبل نيف وثلاثين سنة :

لو كان ما وعدوا من الجنات في هذى الحياة لسرهم من يكفر
فدع دنياهم وتفلسف على بركة الله ، وأنت في أمان من الله ومن عباد الله .

